12
2015

الراسخون

السيكولوجيا من منظور التراث النفسي العربي الإسلامي

إصدارات لجنة التراث النفسي العربي الإسلامي

عدد 12

2015

إصدارات مؤسسة العلوم النفسية العربية

الإنسان في فكر ابن قيم الجوزية

(دراسة نفسية-تربوية)

د.مصطفى عشوي

الفهـــــــــرس

- مقدمة
- منهج إبن القيم 6
- الهدف من الدراسة 7
- منهج الدراسة 8

1- البعد البدني 13

- الرأس 15
- العين 15
- الأذن 16
- أهمية السمع والبصر 17
- الأنف 17
- الفم 18
- القلب 19
- الدماغ 20
- الصحة الجسمية 23
- العناصر الأربعة والإنسان 26
- خلاصة البعد البدني 27

2- البعد الروحي 28

- تعريف الروح 28

- خلق الروح 29
- الروح والحياة 30
- الروح والغيب 32
- الروح والنفس 34
- أمراض القلوب وشفاؤها 37
- تأثير الأرواح في الأجساد (الإصابة بالعين وعلاجها) 40
- الرقية 42
- الصرع وعلاجه 43
- علاقة العبد بربه 44
- تفاوت الأرواح 45
- مفهوم الكمال عند ابن القيم 46
- خلاصة البعد الروحي 50

3- البعد الوجداني: 50

- دفع الغضب 51
- الحزن 53
- علاج حر المصيبة (مصيبة الموت) 54
- علاج الكرب والهم والحزن والفزع وعلاج الأرق 57
- المحبة ومفاسد العشق 57
- مراتب الحب 59
- تأثير المحبة 59
- أنواع المحبة 59
- مفاسد العشق 62
- أقسام العشق 63
- علاج العشق 64
- المحبة واللذة 65
- الغيرة 65

- الجسد 67
- الفرح والسرور 69
- خلاصة البعد الوجداني 71

4- البعد العقلي (المعرفي) 71

- نمو العقل 71
- أنواع العقل 72
- العلم والإرادة 73
- اللغة والفكر 73
- العلم والكمال 74
- العلم والإيمان 75
- ارتباط الحواس بالعمليات العقلية 76
- الذاكرة 78
- العلاقة بين الجانب العقلي والجانب الروحي 79
- خلاصة البعد العقلي 79

5- البعد السلوكي 80

- دور النية في السلوك 82
- الفروق الفردية في السلوك 83
- البعد الاجتماعي للسلوك 83
- السلوك والإرادة 85
- السلوك والأسباب 86
- السلوك والتربية 86
- العلم والأخلاق والسلوك 89
- خلاصة البعد السلوكي 94
- ملمح الإنسان في فكر ابن القيم 95

المراجع والمصادر 98

الإنسان في فكر ابن قيم الجوزية

منهج ابن القيم

قام منهج ابن قيم الجوزية في دراسته لمختلف المواضيع المشار إليها أعلاه على استنباط الأحكام من الكتاب والسنة والإجماع وفتوى الصحابة والقياس، واستصحاب الأصل، والمصالح المرسلة، وسد الذرائع والعرف[1].

واعتمد ابن القيم في منهجه على إيراد الأدلة النقلية والعقلية، كما اعتمد للدفاع عن آرائه على المشاهدة والتجربة التاريخية والتجربة الشخصية في بعض الأحيان.

ولكن ابن القيم في كتابه "الطرق الحكمية" لم يغفل الإشارة إلى منهج الاستقراء القائم على جمع جزئيات قضية ما وبناء حكم كلي بناء على عملية الجمع والتركيب للجزئيات، كما سيشار إلى ذلك لاحقا. وأعطى أمثلة كثيرة لكيفية استخدام هذا الأسلوب للاستنتاج والاستدلال في إصدار الأحكام القضائية وخاصة تلك التي لم يرد فيها نص.

وقد شرح ابن القيم في كتابه "أعلام الموقعين عن رب العالمين" أسلوب القياس، وأكد أنه "ليس في الشريعة ما يخالف القياس"، والقياس هو "الجمع بين المتماثلين والفرق بين المختلفين؛ فالأول قياس الطرد، والثاني قياس العكس..."[2].

وقد استعمل ابن القيم القياس في كثير من آرائه وخاصة عند ترجيح رأيه على بقية الآراء التي يوردها بموضوعية ويناقشها بالدليل الشرعي والعقلي في أغلب الأحيان.

وابن القيم وإن كان حنبلي المذهب إلا أنه لم يتعصب لمذهب معين بل غالبا

ليس من أهداف هذا البحث إجراء مقارنة بين فكر ابن القيم وعلماء النفس أو علماء الاجتماع المعاصرين، وإن كنت سأشير بصفة مختصرة لبعض الجوانب التي أسهم فيها ابن القيم مما له علاقة بعلم النفس الحديث

ما كان يورد أدلة المؤيدين والمخالفين لقضية ما، ويرجح في الأخير رأيا أو حكما معينا سواء كان ذلك في الجانب الفقهي أم في غيره من الميادين العلمية كما سيتبين ذلك عند عرض بعض الآراء التي وردت في هذه الدراسة كما هو الحال في قضية أسبقية خلق البدن عن الروح، ومفهوم الروح في القرآن الكريم وقضية النفس الواحدة وصفاتها المتعددة وغير ذلك من القضايا التي تتعلق بأبعاد الإنسان: البدنية والروحية والعقلية والوجدانية والسلوكية.

يلاحظ المتخصص في علم النفس الحديث خلو أغلب كتب "علم نفس الشخصية" من الإشارة إلى البعد الروحي مثلا في الإنسان؛ إذ يعتبر هذا الجانب ميدان الفلسفة بدلا من ميدان علم النفس

الهـــــدف من الدراســـــة

الهدف من هذه الدراسة، التي تشكل حلقة من عدة حلقات تتناول كلها موضوع "الإنسان بين التكامل والكمال في إطار الفكر الإسلامي القديم والحديث"، إعداد مادة أولية تصلح لأن تكون قاعدة لبحوث ودراسات أشمل وأعمق للدراسات الإنسانية بصفة عامة وللدراسات النفسية والاجتماعية بصفة خاصة؛ الشيء الذي يساعد الباحثين على استخراج فرضيات وتساؤلات علمية قابلة للفحص والتمحيص، وعلى ربط التراث الإسلامي بعلومه الشرعية والطبية والفلسفية وغيرها بالبحوث العصرية في ميادين اختصاصاتهم وخاصة في العلوم الطبية والنفسية والاجتماعية.

إن تقديم مثل هذه الدراسة قد يغطي بعض أوجه النقص في دراسات علم النفس الحديث وخاصة في مجال علم نفس الشخصية.

وقد جاءت هذه الفكرة كاستجابة للحاجة الماسة التي لمسها الباحث عند تدريسه لعلم النفس وخاصة "علم نفس الشخصية" لسنوات عديدة في أكثر من جامعة في العالم الإسلامي.

وينبغي أن أوضح أنه ليس من أهداف هذا البحث إجراء مقارنة بين فكر ابن القيم وعلماء النفس أو علماء الاجتماع المعاصرين، وإن كنت سأشير بصفة مختصرة لبعض الجوانب التي أسهم فيها ابن القيم مما له علاقة بعلم النفس الحديث.

وقد كان موضوع مقارنة "الطبيعة البشرية" محور دراسة أخرى قدمها الباحث قارن فيها المنظور الإسلامي للطبيعة البشرية بمختلف النظريات العصرية التي تناولت هذه الطبيعة وتصوراتها في الشخصية الانسانية في علم النفس الحديث

(نظرية التحليل النفسي، نظرية السمات، النظرية الانسانية، النظرية السلوكية ونظرية التعلم الاجتماعي والنظرية المعرفية)[3].

ويلاحظ المتخصص في علم النفس الحديث خلو أغلب كتب "علم نفس الشخصية" من الإشارة إلى البعد الروحي مثلا في الإنسان؛ إذ يعتبر هذا الجانب ميدان الفلسفة بدلا من ميدان علم النفس؛ وذلك رغم إدراكنا أن أغلب نظريات علم النفس الحديث وخاصة في ميدان علم نفس الشخصية مبنية على أسس فلسفية أو على تجارب شخصية تم تفسيرها وفق نسق فكري أو فلسفي محدد بصفة شعورية أو لاشعورية غالبا ما يستند إما إلى خلفية دينية مسيحية-يهودية وإما إلى خلفية اديولوجية وضعية. وعليه، فإن تقديم مثل هذه الدراسة قد يغطي بعض أوجه النقص في دراسات علم النفس الحديث وخاصة في مجال علم نفس الشخصية.

وبالإضافة إلى ما ذكر، فإن لهذه الدراسة أهدافا تطبيقية في علم النفس والتربية؛ إذا أن فهم مختلف أبعاد الشخصية المذكورة أدناه بأسلوب تكاملي قد تكون له تطبيقات مثلا في المجالات الآتية:

1- العلاج النفسي: دراسة منشأ الاضطراب النفسي وكيفية تأثير الاضطراب في جانب من جوانب الشخصية وكيف تتأثر الجوانب الأخرى بهذا الاضطراب.

2- دراسة السلوك التنظيمي: ونعني به دراسة سلوك الأفراد والجماعات داخل المنظمات أو المؤسسات كموضوع الدوافع والقيادة والاتصال والقيم والثقافة وتأثره بمختلف أبعاد الشخصية.

3- المجالات التربوية: ومن أمثلة ذلك وضع البرامج والمقررات الدراسية، والإرشاد والتوجيه التربوي ومراجعة المناهج على ضوء أبعاد الشخصية المذكورة، وكذلك أساليب معاملة الأطفال وتأديب الولدان.

يتمثل المنهج المعتمد في هذه الدراسة على جمع وعرض وتحليل مختلف الجوانب المتصلة بالإنسان التي تعرض لها ابن قيم الجوزية وتصوره للإنسان بصفة عامة؛ وذلك من خلال نموذج خماسي الأبعاد

هذه الأبعاد (الجوانب) هي: البعد الجسمي، البعد الروحي، البعد العقلي، البعد الوجداني والبعد السلوكي.

منهـــــــج الدراســـــــة

يتمثل المنهج المعتمد في هذه الدراسة على جمع وعرض وتحليل مختلف الجوانب المتصلة بالإنسان التي تعرض لها ابن قيم الجوزية وتصوره للإنسان بصفة عامة؛ وذلك من خلال نموذج خماسي الأبعاد أقدمه كإطار للتحليل؛ وهذه

الأبعاد (الجوانب) هي: البعد الجسمي، البعد الروحي، البعد العقلي، البعد الوجداني والبعد السلوكي.

ولايخفي أن كل بعد من هذه الأبعاد يتفرع إلى جوانب فرعية أخرى كثيرة تشكل ميادين اختصاصات متعددة، متشابكة ومتكاملة. فالجانب الجسمي مثلا هو ميدان علم الأحياء (البيولوجيا)، وعلم وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا)، والطب بفروعه المتعددة وعلوم الصيدلة وعلم الوراثة؛ إذ أن هذا الجانب تؤثر فيه الوراثة والغدد الصماء وغير الصماء والجهاز العصبي ومختلف الأعضاء الحيوية بالجسم كالقلب والكبد والكليتين والرئتين.

الجانب الروحي متعدد الجوانب الفرعية فمنها ما يتعلق بحقيقة الروح وارتباط الروح بالبدن، ومنها ما يتعلق بتأثير القوى الغيبية في الإنسان، ومنها ما يتعلق بتأثير الاعتقاد في التفكير والسلوك، ومنها ما يتعلق بالعلاج الروحاني

وكذلك الجانب الروحي متعدد الجوانب الفرعية فمنها ما يتعلق بحقيقة الروح وارتباط الروح بالبدن، ومنها ما يتعلق بتأثير القوى الغيبية في الإنسان، ومنها ما يتعلق بتأثير الاعتقاد في التفكير والسلوك، ومنها ما يتعلق بالعلاج الروحاني مما سيرد ذكر بعضها لاحقا. وقد تناولت هذه المواضع عدة اختصاصات مثل العلوم الشرعية وعلم الكلام والفلسفة والطب النبوي وغير ذلك.

أما الجانب العقلي؛ فهو ميدان عدة اختصاصات فرعية أيضا مثل علم الأعصاب وعلم النفس العصبي وعلم النفس العام وعلوم التربية.

الجانب العقلي؛ فهو ميدان عدة اختصاصات فرعية أيضا مثل علم الأعصاب وعلم النفس العصبي وعلم النفس العام وعلوم التربية

أما الجانب الوجداني فهو ميدان علم النفس والشعر والفنون بصفة عامة والطب النفسي والطب العام وعلم وظائف الأعضاء إذ أن بعض هذه الميادين مهتمة بالأصل الجسماني للانفعالات كتأثير الغدد والهرمونات بينما بعضها الآخر مهتم بتأثير الجانب العقلي والإدراك في نشوء الانفعالات وتصريفها وفق إدارك معين بينما يكتفي بعضها بوصف الانفعالات دون البحث في أسبابها وكيفية التصرف فيها.

وأخيرا، فإن الجانب السلوكي هو تعبير لتفاعل وتبادل التأثر والتأثير الذي يتم بين مختلف الأبعاد التي تشكل شخصية الإنسان. وقد يتخذ هذا التعبير شكل السلوك الفردي أو الثنائي أو الجماعي أو الاجتماعي بحيث يصبح ميدان السلوك في هذه الحلالات إما ميدان علم النفس الاجتماعي أو ميدان السلوك التنظيمي أو مجال علم الاجتماع بفروعه المتعددة (علم الاجتماع الصناعي أوالثقافي أوالزراعي..).

وليس هذا النموذج إلا إطارا لاعادة تركيب الآراء المتفرقة عن الإنسان في مختلف كتب ابن القيم بهدف تصنيفها وتنظيمها لتكوين صورة متكاملة أو ملمح للإنسان في فكر هذا العالم ؛ وذلك ضمن إطار أزعم أنه إطار تكاملي؛ أي إطار تتكامل فيه الأبعاد الذكورة أعلاه مما يمكننا من فهم أفضل للإنسان من جهة، ولتفادي المقاربات والتناولات الجزئية والتجزيئية للإنسان التي سادت وما تزال تسود مختلف الاختصاصات في العلوم الحديثة.

الجانب الوجداني فهو ميدان علم النفس والشعر والفنون بصفة عامة والطب النفسي والطب العام وعلم وظائف الأعضاء

وعليه، فالمنهج المعتمد في هذه الدراسة هو المنهج الاستقرائي الذي ينطلق من الجزء إلى الكل؛ بهدف تكوين صورة كلية للإنسان لاتهمل أبعاده الجسيمة والروحية والعقلية والوجدانية والسلوكية على أن يتعاون مختلف المختصون على تشكيل وبلورة هذه الصورة من خلال أبحاثهم وجهودهم التي ينبغي أن تندرج ضمن هذا التصور الذي يراعي تفاعل وتكامل مختلف أبعاد الإنسان.

وإذ أشير إلى أن هذا النموذج المعتمد في هذه الدراسة سيتطرق بشيء من التفصيل إلى مختلف الأبعاد المكورة أعلاه إلا أنه لايمكن لنموذج واحد أو اختصاص واحد أن يستوعب كل المجالات المذكورة أعلاه. وحسبنا أن نكتفي بالإشارة إلى أهم الجوانب المشكلة لهذه الأبعاد مما يفتح المجال لاجتهادات أخرى ضمن هذا التصور.

الجانب السلوكي هو تعبير لتفاعل وتبادل التأثر والتأثير الذي يتم بين مختلف الأبعاد التي تشكل شخصية الإنسان

وكتحديد إجرائي مبدئي؛ فإنني أشير إلى أن الجانب النفسي في هذا النموذج متضمن خصوصا في الجانبين: العقلي والوجداني؛ وإن كان هذان الجانبان –كما سيتبين ذلك لاحقا– يتفاعلان ويتكاملان مع بقية الجوانب الأخرى. ولكن مفهوم النفس عند ابن القيم لا يعني ذلك بالضبط إذ أوضح كما سيشرح ذلك بالتفصيل أن هذا المفهوم قد أتى في القرآن الكريم بعدة معان من بينها بمعنى الروح وبمعنى الجسد.

ويتحدد الجانب الجسمي اجرائيا أيضا في هذه الدراسة بالأعضاء التي تكون بدن الإنسان سواء كانت مرئية كالرأس واليدين والرجلين وأعضاء الحواس، أو غير مرئية (الأعضاء الداخلية) كالكبد والقلب والدماغ مما سيأتي شرحه في المحور المتعلق بهذا الجانب.

أما الجانب الاجتماعي فهو متضمن في البعد السلوكي الذي هو –كما أشرت– حصيلة تفاعل وتكامل مختلف أبعاد الإنسان: الجسدية والروحية والعقلية والوجدانية. وقد أفاض ابن القيم في شرح هذا الجانب؛ أي الجانب الإجتماعي، وخاصة في بعده الأخلاقي مما يتطلب دراسة مستقلة في هذا الموضوع الهام. ولاشك، أن للبعد السلوكي جانبين: جانب مرئي وجانب غير مرئي. يشمل الجانب المرئي من السلوك التفاعل مع الآخرين بينما يشمل الجانب غير المرئي نشاطات لاترى مباشرة مثل التخيل والتفكر.

وأشير إلى أن هذا النموذج لا ينظر إلى كل جانب أو بعد بصفة منفصلة عن الجوانب أو الأبعاد الأخرى إلا بصفة مؤقتة وشكلية بهدف التعمق في فهم كل جانب على حدة مع تبيان تأثير كل جانب في الجوانب الأخرى وتأثره بها. وكان الباحث قد عرض هذا النموذج بالتفصيل في دراسة أخرى تحت عنوان "الإنسان المتكامل في القرآن الكريم"[4].

وعموما، فإن هذا النموذج يقوم على بعض المسلمات من أهمها:

1– تفاعل الأبعاد الخمسة المذكورة.

2– تبادل التأثر والتأثير بين هذه الأبعاد.

3– عندما يضطرب بعد من هذه الأبعاد فإن ذلك يؤثر سلبيا في الأبعاد الأخرى مما يؤدي إلى اضطرابها جميعها أو اضطراب بعضها ولو بنسب متفاوتة.

4– عندما يضطرب بعد من هذه الأبعاد تتجند باقي الأعضاء: كلها أو بعضها ولو بنسب متفاوتة لمعالجة هذا الاضطراب، وإعادة التوازن للشخصية وفق تداعي قانون الأعضاء المذكور في الحديث الشريف: "ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضوا تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى"[5].

5– يمكن مقارنة هذه الأبعاد بألوان الطيف؛ فهي سبعة ألوان مرئية وعدة ألوان أخرى غير مرئية بالعين المجردة ولكن مجموعها يشكل لونا آخر يختلف تماما عن بقية الألوان وهو اللون الأبيض؛ أي أن الكل الذي يتشكل من ألوان الطيف أو قوس قزح يختلف تماما عن مجموع الأجزاء أي الألوان التي تكونه.

المنهج المعتمد في هذه الدراسة هو المنهج الاستقرائي الذي ينطلق من الجزء إلى الكل؛ بهدف تكوين صورة كلية للإنسان لاتهمل أبعاده البسيمة والروحية والعقلية والوجدانية والسلوكية

أشير إلى أن الجانب النفسي في هذا النموذج متضمن خصوصا في الجانبين: العقلي والوجداني؛ وإن كان هذان الجانبان –كما سيتبين ذلك لاحقا– يتفاعلان ويتكاملان مع بقية الجوانب الأخرى

وكذلك الإنسان وإن كان يتكون من عدة أبعاد بعضها مرئي وقابل للملاحظة المباشرة وغير المباشرة، فإن بعضها غير قابل للملاحظة المباشرة تماما، ويتطلب مناهج وأدوات مناسبة لدراستها قد تختلف تماما عن الأدوات المستعملة لدراسة الجوانب والأبعاد القابلة للملاحظة.

والملاحظ أن الإنسان ككل أو وحدة كلية يختلف تماما عن مجموع الأجزاء التي تشكل هذا الكل مهما استقصينا هذه الأجزاء وحاولنا إحصاءها وتعدادها مهما يجعلنا نستنتج أن منهج الاستقراء الناقص يغنينا عن اتباع منهج الإستقراء التام العقيم.

عندما يضطرب بعد من هذه الأبعاد فإن ذلك يؤثر سلبيا في الأبعاد الأخرى مما يؤدي إلى اضطرابها جميعها أو اضطراب بعضها ولو بنسب متفاوتة

ولاشك أن استعراض آراء ابن القيم المتعلقة بموضوع هذه الدراسة سيوضح لنا كيف أن هذا العالم الفذ قد أقام علاقات واضحة بين مختلف أبعاد الشخصية، وأوضح كيفية تبادل التأثر والتأثير بين هذه الأبعاد على ضوء ما لديه من النصوص الشرعية الثابتة، وعلى ضوء المعطيات العلمية والطبية في عصره وعلى ضوء المشاهدة والتجربة الشخصية أيضا دون أن يغفل الاشارة إلى ارتباط ذلك كله بالواقع كما فعل في كتابه "الطرق الحكمية في السياسة الشرعية"، وإلى ضرورة فهم هذا الواقع في استنباط الأحكام والحلول واستنتاجها واستقرائها في بعض الأحيان.

وسيشار إلى هذا الموضوع لاحقا لما له من أهمية في مناهج البحث العلمي ونتائج ذلك على مستوى فهم المشكلات المطروحة في الواقع وإيجاد الحلول العملية لها بناءا على ذلك الفهم.

عندما يضطرب بعد من هذه الأبعاد تتجند باقي الأعضاء كلها أو بعضها ولو بنسب متفاوتة لمعالجة هذا الاضطراب

وانطلاقا من المسلمات المذكورة أعلاه؛ فإننا نبسط موضوع الأبعاد المشكلة لشخصية الإنسان عسى أن يؤدي هذا التبسيط والفهم إلى تشكيل تصورات نظرية واضحة عن شخصية الإنسان قائمة على التناول التكاملي والتفاعلي لهذه الأجزاء.

ونظرا لكون الجانب الجسمي (البدني) من أسهل أبعاد الشخصية القابلة للملاحظة والدراسة، فإننا نبدأ الحديث به علما بأن ابن القيم من الذين يعتقدون بأن خلق البدن سابق لنفخ الروح فيه كما سيتبين ذلك عند الحديث عن البعد الروحي للإنسان في فكر ابن القيم.

1- البعد البدني

أكد ابن القيم أن الإنسان يتكون من أربعة أجزاء وهي: جزء أرضي وجزء هوائي وجزء مائي وجزء ناري[6]. وفصل ابن القيم القول في هذا المجال حسب سقف العلم الذي كان في عصره، ويمكن الرجوع إلى تفاصيل هذا الموضوع لمن أراد المزيد في ذلك في المصدر المذكور.

الإنسان وإن كان يتكون من عدة أبعاد بعضها مرئي وقابل للملاحظة المباشرة وغير المباشرة، فإن بعضها غير قابل للملاحظة المباشرة تماما

أما فيما يخص البعد الجسمي أو البدني في شخصية الإنسان، فقد أوضح ابن القيم أن خلق البدن سابق لخلق الروح وأن الروح شيء مخالف للبدن. وعليه، فالبدن شيء أيضا مخالف للروح وإن كانا يرتبطان برباط قوي لايفصله إلا الموت بل إن الروح حسب ابن القيم وكما سيتبين ذلك لاحقا عند الحديث عن البعد الروحي في فكر ابن القيم قد تخرج من البدن عند الموت ولكنها تعود إليه عند وضعه في القبر وهكذا الأمر في مختلف المراحل.

وأولى ابن قيم الجوزية موضوع خلق الإنسان والأعضاء التي يتكون منها جسمه أهمية كبيرة وخاصة في كتابه "مفتاح دار السعادة..." حيث خصص عدة فصول للحديث عن "خلق الإنسان وما فيه من الآثار وبديع الصنع والكلام على أعضاء الإنسان عضوا عضوا وبيان ما في كل واحد منها من الحكم"[7].

أن الإنسان ككل أو وحدة كلية يختلف تماما عن مجموع الأجزاء التي تشكل هذا الكل مهما استقصينا هذه الأجزاء وحاولنا إحصاءها وتعدادها

وسنلاحظ بعد قليل كيف فصل ابن القيم الحديث في الأجزاء التي تكون الإنسان عضوا عضوا؛ أي كيف انطلق من الجزء (العضو) لدراسة الكل (الجانب البدني للإنسان)، وكيف ركز على الجانب الحيوي (البيولوجي) والوظيفي (وظائف الأعضاء) سواء من ناحية الخلق أم من ناحية التركيب والوظيفة، وكيف ربط بين الجانب الوجداني (المحبة)، ونشوء الجنين من اجتماع الذكر والأنثى على أساس وجداني وحيوي.

ومن ناحية أخرى فقد بين ابن القيم أن لكل عضو من أعضاء البدن فعل ووظيفة خاصة به قد يبلغ بها درجة الكمال. ولكن المرض شيء واقعي ومرتبط أيضا بمختلف الأعضاء المشكلة لبدن الإنسان. وفي هذا قال ابن القيم: "كل عضو من أعضاء البدن خلق لفعل خاص به كماله في حصول ذلك الكمال منه. ومرضه: أن يتعذر عليه الفعل الذي خلق له حتى لا يصدر منه أو يصدر مع نوع

من الاضطراب. فمرض اليد: أن يتعذر عليها البطش ومرض العين : أن يتعذر عليها النظر والرؤية ومرض اللسان أن يتعذر عليه النطق ومرض البدن: أن يتعذر عليه حركته الطبيعية أو يضعف عنها. ومرض القلب: أن يتعذر عليه ما خلق له من معرفة الله ومحبته والشوق إلى لقائه..."[8].وأوضح ابن القيم أن حياة البدن إنما تكون بالطعام والشراب ولا تحصل دونهما إلا أنه لم يغفل عن الجانب الروحي وأساس حياته إذ قال: "وكما أن الله سبحانه جعل حياة البدن بالطعام والشراب فحياة القلب بدوام الذكر والإنابة إلى الله وترك الذنوب..."[9].

منهج الاستقراء الناقص يغنينا عن اتباع منهج الإستقراء التام العقيم

وكما أن للبدن لذة ينعم بها فإن للقلب والروح لذة أيضا. ولكن أكمل الناس لذة كما قال ابن القيم هو: "من جمع له بين لذة القلب والروح ولذة البدن فهو يتناول لذاته المباحة على وجه لاينقص حظه من الدار الآخرة ولايقطع عليه لذة المعرفة والمحبة والأنس بربه.."[10].

إننا نبسط موضوع الأبعاد المشكلة لشخصية الإنسان عسى أن يؤدي هذا التبسيط والفهم إلى تشكيل تصورات نظرية واضحة عن شخصية الإنسان قائمة على التناول التكاملي والتفاعلي لهذه الأجزاء

وأما إذا رجعنا إلى وصف ابن القيم لبدن الإنسان، فإننا نجد أنه أفاض في ذلك في كتابه المشار إليه أعلاه "مفتاح دار السعادة.." حيث بدأ فيه عند وصف الجانب الجسمي للإنسان بالحديث أولا على الأساس البيولوجي أو الحيوي للحياة؛ إذ تحدث عن اجتماع الذكر والأنثى بالزواج، وكيفية إلقاء المحبة بينهما (الجانب الوجداني) ثم اجتماع مائي الذكر والأنثى في قرار مكين ثم أتبع ذلك بوصف مختلف مراحل النمو في الرحم وبعد الولادة ثم الانتقال إلى وصف تشريحي دقيق لمختلف الأعضاء ووظائفها مما يدل على اطلاع ابن القيم على ما وصل إليه تشريح الأعضاء في عصره.

وقد اشتمل وصفه على تبيان الحكمة والإبداع في خلق مختلف الأعضاء وعلى تركيبها ووظائفها وعلى عدد العظام والمفاصل التي يتركب منها جسم الإنسان، وعلى الرباطات التي تشد الجسم والعروق، والأعصاب، والحواس الخمس، والرأس وعدد عظامه وتجاويفه، وغير ذلك من الأعضاء الباطنية والخارجية.

ولربما يكفينا هنا عرض وصف ابن قيم الجوزية للعين والأذن والأنف والفم وللرأس والقلب والدماغ لما لهذه الأعضاء من أهمية في الجسم وعلاقتها بمختلف

الجوانب الأخرى في الإنسان حسب النموذج المذكور آنفا. ويمكن لمن أراد مزيدا من التفصيل في وصف الأعضاء ووظائفها الرجوع إلى كتاب "مفتاح دار السعادة ومنشور ألوية العلم والإرادة".

- الـــــــرأس

قال ابن القيم في وصف الرأس: "وتأمل كيفية خلق الرأس وكثرة ما فيه من العظام حتى قيل إنها خمسة وعشرون عظما مختلفة الأشكال والمقادير والمنافع وكيف ركبه سبحانه وتعالى على البدن وجعله عاليا علو الراكب على مركوبه ولما كان عاليا على البدن جعل فيه الحواس الخمس وآلات الإدراك كلها من السمع والبصر والشم والذوق واللمس وجعل حاسة البصر في مقدمه ليكون كالطليعة والحرس والكاشف للبدن"[11].

وبالإضافة إلى هذا الوصف الموجز للرأس، فقد أضاف ابن القيم في مكان آخر وصفه للرأس بأنه يتكون من ثلاث خزائن تؤدي كل منها إلى الأخرى، وأن مواقع هذه الخزائن في مقدمة ووسط وآخر الرأس؛ وهذه الخزائن هي مستودع الذكر والفكر والتعقل[12].

وفي موضع آخر، أشار ابن القيم إلى تزيين الرأس بالشعر لاحتياجه إليه كلباس، وتزيين الوجه بما أنبت به من الشعور المختلفة الأشكال والمقادير؛ فزين بالحاجبين وجعلا وقاية للعينين، وزينت أجفان العينين بالأهداب، وزين الوجه أيضا باللحية باعتبارها كمالا ووقارا ومهابة للرجل، وزينت الشفتان بما أنبت فوقهما من الشارب...[13]

ورغم إشارة ابن القيم الذكية إلى أن الرأس مستودع العمليات العقلية كالتذكر والتفكر والتعقل، وأنه مستودع الحواس الخمس وعمليات الإدراك إلا أنه لم يول أهمية كبرى للدماغ بل اعتبر القلب ملك الأعضاء. ويلاحظ أيضا أن بعض أفكاره عن وظائف الدماغ يشوبها الاضطراب بسبب اضطراب المصادر التي نقل عنها كما سنرى ذلك عند استعراض وصفه للدماغ.

- العيـــــــن

تتركب العين –كما أورد ذلك ابن القيم– "من سبع طبقات لكل طبقة وصف

أوضح ابن القيم أن خلق البدن سابق لخلق الروح وأن الروح شيء مخالف للبدن. وعليه، فالبدن شيء أيضا مخالف للروح وإن كانا يرتبطان برباط قوي لايفصله إلا الموت

قال ابن القيم: "كل عضو من أعضاء البدن خلق لفعل خاص به كماله في حصول ذلك الكمال منه. ومرضه: أن يتعذر عليه الفعل الذي خلق له حتى لا يصدر منه أو يصدر مع نوع من الاضطراب

مخصوص ومقدار مخصوص ومنفعة مخصوصة لو فقدت طبقة من تلك الطبقات أو زالت عن هيئتها وموضعها لتعطلت العين عن الإبصار ثم أركز سبحانه تلك الطبقات السبع خلقا عجيبا وهو إنسان العين بقدر العدسة يبصر به ما بين المشرق والمغرب والأرض والسماء وجعله من العين بمنزلة القلب من الأعضاء فهو ملكها وتلك الطبقات والأجفان والأهداب خدم له وحجاب وحراس فتبارك الله أحسن الخالقين (فانظر) كيف حسن شكل العينين وهيئتيهما ومقدارهما ثم جملهما بالأجفان غطاء لهما وسترا وحفظا وزينة فهما يتلقيان عن العين الأذى والقذى والغبار ويقيانهما من البارد المؤذي والحار المؤذي ثم غرس في أطراف تلك الأجفان والأهداب جمالا وزينة ومنافع أخر وراء الجمال والزينة ثم أودعهما ذلك النور الباصر والضوء الباهر الذي يخرق ما بين السماء والأرض ثم يخرق السماء مجاوزا لرؤية ما فوقها من الكواكب وقد أودع سبحانه هذا السر العجيب في هذا المقيد الصغير بحيث ينطبع فيه صورة السموات مع اتساع أكنافها وتباعد أقطارها"[14].

كما أن الله سبحانه جعل حياة البدن بالطعام والشراب فحياة القلب بدوام الذكر والإنابة إلى الله وترك الذنوب..." . وكما أن للبدن لذة ينعم بها فإن للقلب والروح لذة أيضا

- الأذن

الأذن أداة السمع، خلقها الله تعالى في أحسن صورة لتقوم بوظيفتها على أكمل وجه؛ وقد أجاد ابن القيم في وصفها حيث قال: "وخلق الأذن أحسن خلقة وأبلغها في حصول المقصود منها فجعلها مجوفة كالصدفة لتجمع الصوت وتؤديه إلى الصماخ، وليحس بدبيب الحيوان فيها فيبادر إلى إخراجه، وجعل فيها غضونا وتجاويف واعوجاجات تمسك الهواء والصوت الداخل فتكسر حدته ثم تؤديه إلى الصماخ ومن حكمة ذلك أن يطول به الطريق على الحيوان فلا يصل إلى الصماخ حتى يستيقظ أو ينتبه[15] لإمساكه وفيه أيضا حكم غير ذلك ثم اقتضت حكمة الرب الخالق سبحانه أن جعل ماء الأذن مرا في غاية المرارة فلا يجاوزه الحيوان ولا يقطعه داخلا إلى باطن الأذن بل إذا وصل إليه أعمل الحيلة في رجوعه وجعل ماء العينين ملحا ليحفظها فإنها شحمة قابلة للفساد فكانت ملوحة مائها صيانة لها وحفظا، وجعل ماء الفم عذبا حلوا ليدرك به طعوم الأشياء على ما هي..."[16].

رغم إشارة ابن القيم الذكية إلى أن الرأس مستودع العمليات العقلية كالتذكر والتفكر والتعقل، وأنه مستودع الحواس الخمس وعمليات الإدراك إلا أنه لم يول أهمية كبرى للدماغ بل اعتبر القلب ملك الأعضاء

- أهمية السمع والبصر

من المواضيع الهامة المرتبطة بالجوانب الجسمية والعقلية معا والتي عالجها ابن القيم موضوع السمع والبصر وموقعهما من الإدراك وعلاقتهما بالقلب، وأفضلية أحدهما عن الآخر تبعا لوظائف كل منهما؛ حيث قال: "ولما كان للسمع والبصر من الإدراك ما ليس لغيرهما من الأعضاء كانا في أشرف جزء من الإنسان وهو وجهه وكانا من أفضل ما في الإنسان من الأجزاء والأعضاء والمنافع واختلف في الأفضل منهما"[17].

لما كان للسمع والبصر من الإدراك ما ليس لغيرهما من الأعضاء كانا في أشرف جزء من الإنسان وهو وجهه وكانا من أفضل ما في الإنسان من الأجزاء والأعضاء

لاحظ هنا أن ابن القيم وإن أشار إلى موقع السمع والبصر في الوجه أي في الرأس ودورهما في العمليات الادراكية إلا أنه أقام علاقة بينهما وبين القلب. ولاغرو في ذلك، فالقلب عند ابن القيم بمثابة ملك الأعضاء مما يجعل ارتباط كل الأعضاء به شيئا أساسيا وضروريا.

- الأنـــــــف

وصف ابن القيم الأنف ووظيفته وصفا رائعا حيث قال: "ونصب سبحانه قصبة الأنف في الوجه فأحسن شكله وهيأته ووضعه وفتح فيه المنخرين وحجز بينهما بحاجز، وأودع فيهما حاسة الشم التي تدرك بها أنواع الروائح الطيبة والخبيثة والنافعة والضارة وليستنشق به الهواء فيوصله إلى القلب فيتروح به ويتغذى به ثم لم يجعل في داخله من الاعوجاجات والغضون ما جعل في الأذن لئلا يمسك الرائحة فيضعفها ويقطع مجراها، وجعله سبحانه مصبا تتحدر فيه فضلات الدماغ فتجتمع فيه ثم تخرج منه، واقتضت حكمته أن جعل أعلاه أدق من أسفله لأن أسفله إذا كان واسعا اجتمعت فيه تلك الفضلات فخرجت بسهولة ولأنه يأخذ من الهواء ملأه ثم يتصاعد في مجراه قليلا حتى يصل إلى القلب وصولا لا يضره ولا يزعجه ثم فصل بين المنخرين بحاجز بينهما حكمة ورحمة...فإنه لما كان عضوا واحدا وحاسة واحدة ولم يكن عضوين وحاستين كالأذنين والعينين اللتين اقتضت الحكمة تعددهما فإنه ربما أصيبت إحداها أو عرضت لها آفة تمنعها من كمالها فتكون الأخرى سالمة فلا تتعطل منفعة هذا الحس جملة. وكان وجود أنفين في الوجه شيئا ظاهرا فنصب فيه أنفا واحدا وجعل فيه منفذين حجز بينهما

يلاحظ أيضا أن ابن قيم الجوزية قد فسر مفهوم "الأفئدة" الوارد في القرآن الكريم بأنه "القلب" إلا أنه قد استعرض أثناء وصفه للدماغ مختلف الآراء حول وظائف الدماغ والقلب

بحاجز يجري مجرى تعدد العينين والأذنين في المنفعة وهو واحد فتبارك رب العالمين وأحسن الخالقين"[18].

- الفم

وضع الله تعالى الفم كما وصفه ابن القيم في أحسن موضع من الوجه وأليقه "وأودع فيه من المنافع وآلات الذوق والكلام وآلات الطحن والقطع ما يبهر العقول عجائبه فأودعه اللسان الذي هو أحد آياته الدالة عليه وجعله ترجمانا لملك الأعضاء مبينا مؤديا عنه، كما جعل الأذن رسولا مؤديا مبلغا إليه؛ فهي رسوله وبريده الذي يؤدي إليه الأخبار واللسان بريده ورسوله الذي يؤدي عنه ما يريد، واقتضت حكمته سبحانه أن جعل هذا الرسول مصونا محفوظا مستورا غير بارز مكشوف كالأذنين والعين والأنف لأن تلك الأعضاء لما كانت تؤدي من الخارج إليه جعلت بارزة ظاهرة ولما كان اللسان مؤديا منه إلى الخارج جعل له سترا مصونا لعدم الفائدة في إبرازه لأنه لا يأخذ من الخارج إلى القلب وأيضا فلأنه لما كان أشرف الأعضاء بعد القلب ومنزلته منه منزلة ترجمانه ووزيره ضرب عليه سرادق تستره وتصونه وجعل في ذلك السرادق كالقلب في الصدر، وأيضا فإنه من ألطف الأعضاء وألينها وأشدها رطوبة وهو لا يتصرف إلا بواسطة الرطوبة المحيطة به فلو كان بارزا صار عرضة للحرارة واليبوسة والنشاف المانع له من التصرف ولغير ذلك من الفوائد والحكم...ثم زين سبحانه الفم بما فيه من الأسنان...وأحاط سبحانه على ذلك حائطين وأودعهما من المنافع والحكم ما أودعهما وهما الشفتان فحسن لونهما وشكلهما...وخلق سبحانه الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة والصلابة واللين والطول والقصر فاختلفت بذلك الأصوات أعظم اختلاف ولا يكاد يشتبه صوتان إلا نادرا..."[19].

والملاحظ أن ابن القيم، قد أشار إلى أن الهواء الذي يستنشق يذهب عن طريق الأنف إلى القلب مباشرة وليس إلى الرئتين اللتين أشار إليهما في مكان آخر بأنهما آلة للترويح عن القلب لم تجعلا لتعديل حرارته[20] . ولعل هذا التفسير راجع إلى عدم تقدم علم التشريح في عصر ابن القيم أو إلى عدم اطلاع ابن القيم على التشريح الصحيح لجسم الإنسان ووظائف أعضائه كما سيتبين ذلك في شرحه لوظائف القلب والدماغ.

تجدر الإشارة إلى أهمية وصف الفرقة الأخيرة لوظائف الدماغ كالتفكر والتذكر واستخراج الصواب (الحلول)، وتأكيدها على علاقة هذه الوظائف بالشروط (الظروف) الطبيعية (الفيزيائية) المحيطة بالإنسان، وبحالته الوجدانية (الغضب والشهوة والهم والحركات القوية النفسانية)، وبحالته الجسمية.

- القلب

المقصود بالقلب هنا هو العضو الجسمي وليس القلب بالمعنى الروحاني الذي شرح أعلاه. وقد تعرض ابن القيم للقلب كعضو جسماني وحاول شرح بعض وظائفه.

القلب كعضو في جسم الإنسان –في وصف ابن قيم الجوزية– كالملك في رعيته؛ فهو على حد وصفه: "**الملك** المستعمل لجميع آلات البدن والمستخدم لها فهو محفوف بها...مستقر في الوسط وهو **أشرف أعضاء البدن** وبه قوام الحياة وهو **منبع الروح الحيواني** والحرارة الغريزية وهو **معدن العقل** والعلم والحلم والشجاعة والكرم والصبر والاحتمال والحب والإرادة والرضا والغضب وسائر صفات الكمال فجميع الأعضاء الظاهرة والباطنة وقواها إنما هي جند من أجناد القلب فإن العين طليعته ورائده الذي يكشف له المرئيات...كما أن اللسان ترجمانه المؤدي للسمع ما فيه ولهذا كثيرا ما يقرن سبحانه في كتابه بين هذه الثلاث كقوله (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) وقوله (وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة)..."[21].

...قالوا ولا ريب أن مبدأ القوة العاقلة منه (بالقلب) وإن كان قد خالفهم في ذلك آخرون وقالوا بل العقل في الرأس؛ فالصواب أن مبدأه ومنشأه من القلب وفروعه وثمرته في الرأس

لاحظ أن ابن القيم قد جعل القلب بمثابة ملك الأعضاء، وهو منبع الروح وهو معدن العقل، وكل باقي الأعضاء من جنوده الذين يخدمونه ويؤدون إليه أو عنه. ورغم ما لأهمية القلب في جسم الإنسان، فقد نسب إليه ابن القيم وظائف وصفات تنسب حاليا للدماغ (المخ) أو لمجموع شخصية الإنسان بدلا من القلب وحده.

القرآن دل على هذا بقوله (أ فلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها) وقال (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب)

ولا ينكر أن للقلب دورا في العمليات العقلية والوجدانية باعتباره العضو الذي يغذي الدماغ وسائر الأعضاء بالهواء والغذاء عن طريق الدم المصفى، والدم هو الذي ينقل الهرمونات إلى باقي الأعضاء فتؤثر في أدائها كما تؤثر في السلوك؛ وقد أصبح هذا من بديهيات علم وظائف الأعضاء وعلم النفس الوظيفي (الفسيولوجي).

ورغم إشارة ابن القيم إلى أن الرأس هو مستودع التذكر والتفكر والتعقل عند وصفه له، إلا أنه لم يتوسع في وصف الدماغ عندما وصفه مباشرة بعد وصفه للقلب. ويلاحظ أيضا أن ابن قيم الجوزية قد فسر مفهوم "الأفئدة" الوارد في القرآن

الكريم بأنه "القلب" إلا أنه قد استعرض أثناء وصفه للدماغ مختلف الآراء حول وظائف الدماغ والقلب، وانتهى إلى موقف وسط كما سيعرف ذلك عند عرضه لوصف الدماغ.

والمتمعن في الآراء التي أوردها ابن القيم يلاحظ مدى تقدم علم التشريح في عصره، وإن كان الموضوع قد شابه بعض الغموض وخاصة فيما يتعلق بوظائف القلب وبحرارة الأعضاء وعلاقة ذلك بوظائفها، وبعدد عظام الرأس أو الجمجمة.

إن العلماء المسلمين قد اختلفوا في تفسير مفهوم "القلب" الوارد في القرآن الكريم كما اختلفوا في تفسير وظائف القلب

- الدمـــــــاغ

وعكس القلب الذي وصفه ابن القيم بأنه حار، وبأنه منبع الحرارة الغريزية بل وهو أشد الأعضاء حرارة، فقد وصف ابن القيم الدماغ الذي هو المخ بأنه عضو بارد، وحاول تبرير ذلك بإيراد مختلف الآراء في الموضوع؛ فقال: "وأما الدماغ وهو المخ فإنه جعل باردا واختلف في حكمة ذلك فقالت طائفة إنما كان الدماغ باردا لتبريد الحرارة التي في القلب ليردها عن الإفراط إلى الاعتدال وردت طائفة هذا وقالت لو كان كذلك لم يكن الدماغ بعيدا عن القلب بل كان ينبغي أن يحيط به كالرئة أو يكون قريبا منه في الصدر ليكسر حرارته. قالت الفرقة الأولى بعد الدماغ من القلب لا يمنع ما ذكرناه من الحكمة لأنه لو قرب منه لغلبته حرارة القلب بقوتها فجعل البعد بينهما بحيث لا يتفاسدان وتعتدل كيفية كل واحد منهما بكيفية الآخر وهذا بخلاف الرئة فإنها آلة للترويح على القلب لم تجعل لتعديل حرارته، وتوسطت فرقة أخرى وقالت بل المخ حار لكنه فاتر الحرارة وفيه تبريد بالخاصية فإنه مبدأ للذهن، ولهذا كان الذهن يحتاج إلى موضع ساكن قار صاف عن الأقذار والكدر خال من الجلبة والزجل ولذلك يكون جودة الفكر والتذكر واستخراج الصواب عند سكون البدن وفتور حركاته وقلة شواغله ومزعجاته ولذلك لم يصلح لها القلب وكان الدماغ معتدلا في ذلك صالحا له ولذلك تجود هذه الأفعال في الليل وفي المواضع الخالية وتفسد عند التهاب نار الغضب والشهوة وعند الهم الشديد ومع التعب والحركات القوية البدنية والنفسانية"[22].

كان هناك أحيانا خلط بين "أمراض القلوب" التي نعني بها حاليا بعض الاضطرابات الوجدانية والسلوكية ومفهوم القلب كعضو من أعضاء الجسم يتأثر بوظائف باقي الأعضاء ويؤثر فيها وقد يصاب بمرض عضوي مثل باقي الأعضاء

بعد هذا الوصف الذي تضمن وصفا لمختلف الآراء السائدة في عصر ابن قيم الجوزية عن وظائف الدماغ، تجدر الإشارة إلى أهمية وصف الفرقة الأخيرة

لوظائف الدماغ كالتفكر والتذكر واستخراج الصواب (الحلول)، وتأكيدها على علاقة هذه الوظائف بالشروط (الظروف) الطبيعية (الفيزيائية) المحيطة بالإنسان (الضوضاء والجلبة والنظافة والهدوء والسكون)، وبحالته الوجدانية (الغضب والشهوة والهم والحركات القوية النفسانية)، وبحالته الجسمية (التعب والحركات القوية البدنية).

يلاحظ المتمعن مثلا في تفسير مفهوم "الفؤاد" و"الأفئدة" في القرآن الكريم اختلافا بين العلماء

وقد تفطن ابن قيم الجوزية بعد إيراد الوصف إلى مناقشة موضوع ذي صلة وثيقة بالموضوع وهو علاقة الحواس الخمس بالقلب والدماغ؛ فأورد في ذلك أيضا آراء متضاربة، وحاول أن يقدم حلا وسطا جديرا بالتأمل على ضوء البحوث المعاصرة في وظائف الأعضاء وعلاقتها بالجوانب العقلية والوجدانية والجسمية والروحية والسلوكية للإنسان.

الصحة الجسمية عند ابن القيم هي "الاعتدال الطبيعي"، ومرض البدن هو "خلاف صحته وصلاحه، وهو خروجه عن اعتداله الطبيعي، لفساد يعرض له، يفسد إدراكه وحركته الطبيعية

بعد وصف ابن قيم الجوزية للدماغ ووظائفه، تعرض للعلاقة الموجودة بين كل من الدماغ والقلب بالحواس الخمس والعقل فقال: "وهذا (وصف الدماغ) بحث متصل بقاعدة أخرى وهي أن الحواس والعقل هل مبدؤها القلب والدماغ فقالت طائفة مبدؤها كله القلب وهي مرتبطة به وبينه وبين الحواس منافذ وطرق قالوا وكل واحد من هذه الأعضاء التي هي آلات الحواس له اتصال بالقلب بأعصاب وغير ذلك، وهذه الأعصاب تخرج من القلب إلى أن تأتي إلى كل واحد من هذه الأجسام التي فيها الحواس. قالوا فالعين إذا أبصرت شيئا أدته بالآلة التي فيها إلى القلب لأن هذه الآلة متصلة منها إلى القلب. والسمع إذا أحس صوتا أداه إلى القلب وكذلك كل حاسة...فما من عرق ولا عضو إلا وله اتصال بالقلب اتصالا قريبا أو بعيدا ...قالوا ولا ريب أن مبدأ القوة العاقلة منه وإن كان قد خالف في ذلك آخرون وقالوا بل العقل في الرأس؛ فالصواب أن مبدأه ومنشأه من القلب وفروعه وثمرته في الرأس، والقرآن دل على هذا بقوله (أ فلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها) وقال (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب)، ولم يرد بالقلب هنا مضغة اللحم المشتركة بين الحيوانات بل المراد ما فيه من العقل واللب. ونازعهم في ذلك طائفة أخرى وقالوا مبدأ هذه الحواس إنما هو الدماغ وأنكروا أن يكون بين القلب والعين والأذن والأنف أعصاب أو عروق وقالوا هذا كذب على

الخلقة، **والصواب التوسط بين الفريقين** وهو أن القلب تنبعث منه قوة إلى هذه الحواس وهي قوة معنوية لا تحتاج في وصولها إليه إلى مجار مخصوصة وأعصاب تكون حاملة لها فإن وصول القوى إلى هذه الحواس والأعضاء لا يتوقف إلا على قبولها واستعدادها وإمداد القلب لا على مجار وأعصاب"[23]!!

وفي الواقع، فإن العلماء المسلمين قد اختلفوا في تفسير مفهوم "القلب" الوارد في القرآن الكريم كما اختلفوا في تفسير وظائف القلب، وكان هناك أحيانا خلط بين "أمراض القلوب" التي نعني بها حاليا بعض الاضطرابات الوجدانية والسلوكية ومفهوم القلب كعضو من أعضاء الجسم يتأثر بوظائف باقي الأعضاء ويؤثر فيها وقد يصاب بمرض عضوي مثل باقي الأعضاء.

والموضوع، على كل، ما يزال مطروحا للبحث والمناقشة على ضوء التقدم العلمي الذي وصلت إليه البشرية وخاصة فيما يتعلق بعمليات جراحة القلب وتشريح الدماغ وجراحته (زراعة القلب وجراحة القلب المفتوح، وجراحة الأعصاب والمخ)، وعلى ضوء مختلف تفاسير القرآن الكريم والحديث الشريف لمفهوم القلب والأفئدة والأبصار.

وقد يلاحظ المتمعن مثلا في تفسير مفهوم "الفؤاد" و"الأفئدة" في القرآن الكريم اختلافا بين العلماء في ذلك. فقد وردت كلمة "الفؤاد" في القرآن الكريم 16 مرة (على مستوى الجذر)؛ وأورد ابن كثير عدة تفاسير لمفهوم الأفئدة؛ حيث أورد تفسير ابن عباس بأنها "القلوب والعقول والأسماع"، وأورد تفسير السدي بأنها "القلوب".

أما ابن كثير نفسه فقد فسرها بأنها القلب وبأنها العقل والفهم والإدراك كما فسرها بأنها العقل الذي في الدماغ. انظر مثلا تفسيره لقوله تعالى: "والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون" (سورة السجدة:78)[24].

وبعد وصف مختلف الأعضاء التي تشكل بدن الإنسان، فإن الصحة الجسمية أشد ارتباطا بصحة هذه الأعضاء مما يتطلب شرح موقف ابن القيم من هذا الموضوع؛ فكيف شرح مفهوم الصحة الجسمية ومفهوم المرض؟

ينقسم طب الأبدان - حسب ابن القيم- إلى نوعين:

1- نوع فطري ويشترك فيه الإنسان والحيوان، وهو لا يحتاج إلى معالجة طبيب مثل طب الجوع والعطش والبرد والتعب.

2- نوع يحتاج إلى تفكير وتأمل؛ وهو بدوره نوعان: الأمراض المتشابهة و الأمراض الآلية

شرح ابن القيم أن للبدن ثلاثة أحوال: طبيعية، وغير طبيعية، ومتوسطة بين الأمرين، كما شرح الأسباب الداخلية والخارجية المؤدية لخروج البدن عن طبيعته

الصحة الجسمية

الصحة الجسمية عند ابن القيم هي "الاعتدال الطبيعي"، ومرض البدن هو "خلاف صحته وصلاحه، وهو خروجه عن اعتداله الطبيعي، لفساد يعرض له، يفسد إدراكه وحركته الطبيعية، فإما أن يذهب إدراكه بالكلية كالعمى والصمم والشلل، وإما ينقص إدراكه لضعف في آلات الإدراك مع استقامة إدراكه، وإما أن يدرك الأشياء على خلاف ما هي عليه، كما يدرك الحلو مرا، والخبيث طيبا، والطيب خبيثا..."[25].

أمراض الأبدان على وزن أمراض القلوب، وما جعل الله للقلب مرضا إلا جعل له شفاء بضده، فإن علمه صاحب الداء واستعمله، وصادفه داء قلبه أبرأه بإذن الله تعالى

وفي الواقع، فإن هذا التعريف لمرض البدن قد شمل أيضا المرض النفسي عندما أشار ابن القيم إلى نقص الإدراك وتشوهه كأن يدرك الإنسان الحلو مرا والخبيث طيبا والطيب خبيثا. ولعل هذا الاستمال دليل آخر على صعوبة فصل ما هو جسمي عما هو عقلي ووجداني أي نفسي لما يوجد من تشابك وترابط بين البعد البدني وغيره من الأبعاد.

وتتمثل قواعد طب الأبدان عند ابن القيم في ثلاثة أسس وهي: حفظ الصحة، الحمية من الأذى واستفراغ المواد الفاسدة[26]. ويقوم حفظ الصحة عنده على حماية الإنسان لنفسه من كل ما قد يضعفه جسميا. وإذا كانت الحمية وقاية الإنسان لجسمه من أي شيء قد يؤذيه، فإن الاستفراغ هو إخراج كل ما يؤذي الإنسان من بدنه من هذه الأشياء العشرة التي يؤدي حبس أي منها إلى مرض ما: الدم إذا هاج، والمني إذا تبيغ، والبول، والغائط والريح والقيء والعطاس والنوم والجوع والعطش[27].

قد اتفق الأطباء على أنه متى أمكن التداوي بالغذاء لا يعدل عنه إلى الدواء، ومتى أمكن بالبسيط لا يعدل عنه إلى المركب. قالوا: وكل داء قدر على دفعه بالأغذية والحمية، لم يحاول دفعه بالأدوية

وينقسم طب الأبدان –حسب ابن القيم– إلى نوعين:

1– نوع فطري ويشترك فيه الإنسان والحيوان، وهو لا يحتاج إلى معالجة طبيب مثل طب الجوع والعطش والبرد والتعب.

2– نوع يحتاج إلى تفكير وتأمل؛ وهو بدوره نوعان:

أ– **الأمراض المتشابهة:** وهي الحادثة أو المؤثرة في المزاج بحيث يخرج بها عن الاعتدال، إما إلى حرارة أو برودة أو يبوسة أو رطوبة أو ما يتركب من اثنين منها. وهذا النوع ينقسم بدوره إلى قسمين: أمراض مادية وأمراض كيفية.

أما أساس الصحة الجسمية عند ابن القيم فقوله تعالى: "وكلوا واشربوا ولا تسرفوا" (الأعراف:30). وقد شرح ذلك بتأكيده أن حفظ الصحة كلها في كلمتين: الشرب والأكل وعدم الإسراف فيهما

إن البطن إذا امتلأ من الطعام ضاق عن الشراب، فإذا ورد عليه الشراب ضاق عن النفس، وعرض له الكرب والتعب ...هذا إلى ما يلزم ذلك من فساد القلب، وكسل الجوارح عن الطاعات، وتحركها في الشهوات التي يستلزمها الشبع، فامتلاء البطن من الطعام مضر للقلب والبدن

– أمراض مادية، ويقصد بها انصباب مادة أو مواد في البدن.

– أمراض كيفية، ويقصد بها تأثر المزاج وخروجه عن الاعتدال حتى بعد زوال المواد التي أوجبت تلك الأمراض.

ب– **الأمراض الآلية:** وهي التي تؤثر في الأعضاء، فتخرجها عن الاعتدال في هيئتها إما في شكل أو تجويف أو مجرى أو خشونة أو ملاسة أو عدد أو عظم أو وضع؛ فإن هذه الأعضاء إذا تألفت وكان منها البدن سمي تألفها اتصالا، والخروج عن الاعتدال فيه يسمى تفرق الاتصال، أو الأمراض العامة التي تعم المتشابهة والآلية"[28].

وقد أبدع ابن القيم من الناحية المنهجية عندما أكد ضرورة التنبه للسببية أو للأسباب المؤدية للمرض، ولإمكانية تعدد الأسباب وتنوعها، ثم الترتيب عند النظر في الأسباب المشكلة لظاهرة ما؛ حيث قال: "وأمراض المادة أسبابها معها تمدها، وإذا كان سبب المرض معه، فالنظر في السبب ينبغي أن يقع أولا، ثم في المرض ثانيا، ثم في الدواء ثالثا"[29].

وقد شرح ابن القيم أن للبدن ثلاثة أحوال: طبيعية، وغير طبيعية، ومتوسطة بين الأمرين، كما شرح الأسباب الداخلية والخارجية المؤدية لخروج البدن عن طبيعته[30]

وقد قاس ابن القيم أمراض البدن وعلاجها على أمراض القلوب وعلاجها حيث قال في ذلك: "وأمراض الأبدان على وزن أمراض القلوب، وما جعل الله للقلب مرضا إلا جعل له شفاء بضده، فإن علمه صاحب الداء واستعمله، وصادف داء قلبه أبرأه بإذن الله تعالى"[31]

ومن القضايا الهامة التي أثارها ابن القيم في موضوع التداوي، قضية الاستغناء بالغذاء عن الدواء إذا أمكن ذلك، والاكتفاء بالبسيط من الأدوية بدلا من المركب منها إذا لم يستدع الأمر استعمال المركب. وقد اقتبس هذه الفكرة من اتفاق الأطباء عليها حيث أشار إلى ذلك بقوله: "وقد اتفق الأطباء على أنه متى أمكن التداوي بالغذاء لا يعدل عنه إلى الدواء، ومتى أمكن بالبسيط لا يعدل عنه إلى المركب. قالوا: وكل داء قدر على دفعه بالأغذية والحمية، لم يحاول دفعه

بالأدوية"[32]. والأدوية كما صنفها ابن القيم قد تعتمد على الغذاء أو قد تكون بسيطة أو مركبة (وكلها أدوية مادية) وإلى جانبها ما هو أعظم منها من الأدوية وهي الأدوية القلبية والروحانية.

أما أساس الصحة الجسمية عند ابن القيم فقوله تعالى: "وكلوا واشربوا ولا تسرفوا" (الأعراف:30). وقد شرح ذلك بتأكيده أن حفظ الصحة كلها في كلمتين: الشرب والأكل وعدم الإسراف فيهما. ويتم تحقيق ذلك بتناول الشراب والطعام بقدر ما ينتفع به البدن في الكمية والكيفية، ومتى تجاوز ذلك كان إسرافا؛ وقد أكد ابن قيم الجوزية أن كلا من عدم الأكل والإسراف في الأكل مانع للصحة.

وأورد ابن قيم الجوزية أنه لم يكن من عادة الرسول (ص) حبس النفس على نوع واحد من الأغذية؛ فإن ذلك مضر ولو أنه أفضل الأغذية، بل كان يأكل ما جرت عادة أهل بلده بأكله من اللحم والفاكهة والخبز والتمر ونحو ذلك. وفي هذا إشارة مهمة إلى أن الغذاء الذي يتناوله الإنسان ينبغي أن يتناسب والبيئة التي يعيش فيها. ولذلك نلاحظ اختلاف النباتات والفواكه والحيوانات باختلاف البيئات الجغرافية في مختلف مناطق العالم، وأن ذلك مناسب لحاجة الإنسان من الغذاء حسب تلك البيئات وحسب فصول السنة في المناطق التي تكون فيها الفصول الأربعة مثلا.

ولاشك أن تأثير الطعام والشراب في شخصية الإنسان وسلوكه الفردي والجماعي تأثير كبير إلى حد أن إريك فروم قد بالغ فقال: "قل لي ماذا تأكل أقول لك من تكون"[33] وليس هنا مجال هذا المبحث الهام الخاص بتأثير أنواع الأشربة وأنواع المياه والأغذية في السلوك بل وفي الشخصية أيضا. ولكن يكفينا ما أورده ابن قيم الجوزية في هذا المجال؛ حيث أوضح تأثير الأكل المفرط مثلا في الجوانب الأخرى من شخصية الإنسان (الروح والوجدان والسلوك) حيث قال: "...فإن البطن إذا امتلأ من الطعام ضاق عن الشراب، فإذا ورد عليه الشراب ضاق عن النفس، وعرض له **الكرب** والتعب ...هذا إلى ما يلزم ذلك من فساد القلب، وكسل الجوارح عن الطاعات، وتحركها في الشهوات التي يستلزمها الشبع، فامتلاء البطن من الطعام مضر للقلب والبدن"[34].

ذكر ابن القيم أن الروح "سميت روحا لأن بها حياة البدن وكذلك سميت الريح لما يحصل بها من الحياة...ومنها الروح والريحان والاستراحة فسميت النفس روحا لحصول الحياة بها وسميت نفسا إما من الشيء النفيس لنفاستها وشرفها وإما من تنفس الشيء إذا خرج فلكثرة خروجها ودخولها في البدن سميت نفسا

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "روح الآدمي مخلوقة مبدعة باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة

أما بالنسبة للشراب، فقد أورد ابن قيم الجوزية أن الرسول (ص) كان يشرب العسل الممزوج بالماء البارد، وصح عنه أنه نهى عن الشرب قائما، وكان يتنفس في الشرب ثلاثا، ويقول: إنه أروى وأمرأ وأبرأ (أشفى). وصح عنه (ص) أنه أمر بغطاء إناء الشرب، ونهى عن الشرب من فم السقاء، وعن النفس في الإناء والنفخ فيه، وعن الشرب من ثلمة القدح.

وإلى جانب الاهتمام بالأكل والشرب، فقد أورد ابن قيم الجوزية حب النبي (ص) للطيب والروائح الزكية،كما أورد حبه للنظافة في قوله (ص): "إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا أفناءكم وساحاتكم، ولا تشبهوا باليهود..."[35]

إنما أي الروح تتصف بالحركة سواء كانت هذه الحركة ذاتية أم خارجية؛ فهي بناء على ذلك تدخل وتخرج، وتمسك وترسل، وتحس وتشعر، وتلتذ وتتألم

العناصر الأربعة والإنسان

اعتقد العلماء اليونانيون قديما أن الطبيعة تتكون من أربعة عناصر وهي الماء والأرض والهواء والنار؛ وبالتالي فإن كل الكائنات بما فيها الإنسان تتكون من هذه العناصر الطبيعية بنسب مختلفة كما تمت الإشارة إلى ذلك في بداية هذا المحور. وقد تبنى ابن القيم هذه القاعدة التي تجاوزها الزمن ولم تعد قاعدة صالحة لدراسة الكائنات وخاصة الحية منها.

بعد استعراض ابن القيم لمختلف الآراء التي حاولت تحديد حقيقة الإنسان مثل رأي أرسطو والمعتزلة والأشعرية وغيرهم انتهى إلى القول بأن العقلاء هو أن الإنسان هو البدن والروح معا وقد يطلق اسمه على أحدهما دون الآخر بقرينة" .

وقد وجد ابن القيم نفسه صعوبة في تطبيق هذه النظرية عندما اتخذها كاطار لفهم تركيب الإنسان في كتابه "زاد المعاد في هدي خير العباد"؛ حيث قال متسائلا: "ولما كان في الإنسان جزء أرضي، وجزء هوائي، وجزء مائي، قسم النبي (ص) طعامه وشرابه ونفسه على الأجزاء الثلاثة. فإن قيل: فأين حظ الجزء الناري؟

قيل: هذه مسألة تكلم فيها الأطباء، وقالوا: إن في البدن جزءا ناريا بالفعل، وهو أحد أركانه واسطقساته"[36].* ولكن ابن القيم لم يتوقف عند هذا الرأي بل جاء بما يخالفه، وأورد مختلف الآراء التي تدعم هذا الرأي أو ذاك. والظاهر من نقاشه الممتع أنه قد انتصر للرأي الثاني الذي ينفي أن يكون في الإنسان جزء ناري وإن لم ينف الأجزاء الأخرى.

ومن أحسن الأدلة التي أوردها في هذا المجال دليلان، أحدهما نقلي والآخر

عقلي. أما النقلي، فإشارته إلى أن الله تعالى قد ذكر في القرآن الكريم عدة مرات خلق الإنسان، ولم يرد في ذلك أبدا ذكر خلق الإنسان من نار بل إن إبليس هو المخلوق من النار.

أما الدليل العقلي، فهو أن الاستدلال على وجود النار بوجود الحرارة في أبدان الحيوان والإنسان باطل؛ ذلك لأن أسباب الحرارة –كما قال ابن القيم– "أعم من النار، فإنها تكون عن النار تارة، وعن الحركة أخرى، وعن انعكاس الأشعة، وعن سخونة الهواء، وعن مجاورة النار، وذلك بواسطة سخونة الهواء أيضا، وتكون عن أسباب أخر، فلا يلزم من الحرارة النار"[37].

فانظر إلى اتساع مدارك ابن القيم وإلى فكره النقدي حيث انتقد الأطباء المتأثرين بالفكر اليوناني في عصره فيما يتعلق بتفسير حرارة الأجسام بالجزء الناري في الإنسان كما كانوا يزعمون. أما هو فقد أكد أن مصادر الحرارة وأسبابها متعددة؛ إذ أن بعضها مرتبط بالنار، وبعضها بأسباب أخر كالحركة وانعكاس الأشعة.

خلاصة البعد البدني

من الصعب جدا تلخيص أفكار ابن القيم في هذا المجال، إلا أن أهم أفكاره هي:

– يتكون الإنسان من أربعة عناصر أو أجزاء: جزء أرضي، جزء هوائي، جزء مائي وجزء ناري.

– خلق البدن سابق لنفخ الروح فيه.

– نشوء الجنين من اجتماع مائي الرجل والمرأة.

– للوراثة دور في تشكيل شخصية الإنسان.

– لكل عضو في الجسم جانب يبين إبداع الخالق، ووظيفة معينة.

– القلب عضو أساسي في الجسم بل هو ملك الأعضاء، وهو منبع الروح الحيواني والحرارة الغريزية.

– الحواس الخمس موجودة بالرأس وتؤدي وظائف ذات علاقة بالتعلم والإدراك.

– يتكون الرأس من ثلاث خزائن وهو مركز التذكر والتفكر والتعقل.

– الدماغ هو المخ.

قد أحسن ابن القيم في تحديد مفهوم الروح هنا بتحديد صفات الروح ووظائفها بدلا من تحديدها بماهيتها وحقيقتها

إن رأي ابن القيم في تميز "الروح" عن البدن واختلافها عنه رأي جدير بالاحترام والتقدير من الناحيتين العلمية والشرعية؛ وهو أقرب الآراء إلى روح النصوص الصحيحة في القرآن والحديث التي أوردها ابن القيم نفسه للدفاع عن هذا الرأي

- أساس الصحة الجسمية تحقيق الاعتدال الطبيعي؛ الذي يتحقق بالاعتدال في الأكل والشرب، وتنويع الغذاء.

بعد دراسة الجانب الجسمي في فكر ابن القيم ننتقل إلى الجانب الوجداني في فكره لتوضيحه وتبيان تأثيره وتأثره بالجوانب الأخرى.

2- البعد الروحي

أولى ابن قيم الجوزية موضوع "الروح" وما يرتبط به من مفاهيم وقضايا اهتماما كبيرا؛ فألف كتابا بعنوان "**الروح**"، وقد طبع في عدة طبعات بعضها في جزئين. وتعرض لهذا الموضوع في أكثر من كتاب حيث ناقش موضوع خلق الروح وعلاقة الروح بالبدن، كما تعرض للقضايا الروحية من إيمان وعبادة ودعاء وتدرج في مقامات العلاقة مع رب العالمين كما هو واضح في كتابيه: "مدارج السالكين بين إياك نعبد وإياك نستعين"[38] و"طريق الهجرتين وباب السعادتين"[39].

وتعرض ابن القيم إلى التمييز بين مفهومي الروح والنفس كما تعرض إلى قضية تأثير الأرواح في الأجسام مثل الإصابة بالعين وكيفية علاجها، وإلى أمراض القلوب وشفائها وغير ذلك من القضايا ذات الارتباط بالجانب الروحي عند الإنسان والتي ستشرح بشيء من التفصيل فيما يلي.

- تعريف الروح

ذكر ابن القيم أن الروح "سميت روحا لأن بها حياة البدن وكذلك سميت الريح لما يحصل بها من الحياة...ومنها الروح والريحان والاستراحة فسميت النفس روحا لحصول الحياة بها وسميت نفسا إما من الشيء النفيس لنفاستها وشرفها وإما من تنفس الشيء إذا خرج فلكثرة خروجها ودخولها في البدن سميت نفسا ومنه النفس بالتحريك فإن العبد كلما نام خرجت منه فإذا استيقظ رجعت إليه فإذا مات خرجت خروجا كليا فإذا دفن عادت إليه فإذا سئل خرجت فإذا بعث رجعت إليه. فالفرق بين النفس والروح فرق بالصفات لافرق بالذات..." (218).

وسيتضح مفهوم الروح عند ابن القيم أكثر عندما تعرض آراؤه في قضية خلق الروح وارتباط الروح بالغيب وفي الفرق بين الروح والنفس.

أورد مختلف المعاني لمفهوم "الروح" التي وردت في القرآن الكريم على النحو التالي:

1- الروح بمعنى الوحي كما في قوله تعالى: "وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا"(الشورى:53).

2- بمعنى القوة والثبات والنصرة كما في قوله تعالى: "أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه" (المجادلة:22).

3- بمعنى جبريل كقوله تعالى: "نزل به الروح الأمين على قلبك" (الشعراء:193).

- خلق الروح

أكد ابن القيم في كتابه "الروح" أن مذهب أهل الجماعة والأثر قائم على الإجماع بأن الأرواح كلها مخلوقة. وقد احتجوا لذلك بقول النبي (ص): "الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف"؛ والجنود المجندة لا تكون –كما علق على ذلك– إلا مخلوقة"[40].

وأورد ابن القيم بعد هذا الرأي المجمع عليه آراء مخالفة لهذا المذهب؛ وهي آراء المعتزلة والروافض (الشيعة) الذين اعتقدوا أن الروح قديمة أي غير مخلوقة، وأنها انفصلت من ذات الله واتصلت بآدم، كما أورد رأيا آخر ملخصه أنه لا يمكن القول بأن الأرواح مخلوقة أو غير مخلوقة.

والذي يهمنا في هذا المقام تأكيد ابن القيم بأنه لا خلاف بين المسلمين على "أن الأرواح التي في آدم وبنيه وعيسى ومن سواه من بني آدم كلها مخلوقة لله خلقها وأنشأها وكونها واخترعها ثم أضافها إلى نفسه كما أضاف إليه سائر خلقه. قال تعالى: (وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه). وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "روح الآدمي مخلوقة مبدعة باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة"[41].

والذي يستخلص من قراءة كتاب "الروح" لابن القيم، هو أن هذا الموضوع "الروح" قد أثار جدلا كبيرا بين مختلف المذاهب والفرق الفكرية الإسلامية وخاصة من حيث خلق الروح وحقيقتها. وقد ألفت عدة كتب ومقالات في الموضوع، ويعود الفضل لابن القيم في إيرادها في كتابه ومناقشتها، واتخاذ موقف واضح منها.

فقد أورد ابن القيم اثني عشر دليلا لتدعيم موقفه وموقف أهل السنة والجماعة من قضية خلق الروح. ومن أهم الأدلة التي احتج بها، كون الروح "توصف بالوفاة والقبض والإمساك والإرسال وهذا شأن المخلوق المحدث المربوب. قال تعالى: (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضي عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)؛ والأنفس هاهنا هي الأرواح قطعا"[42].

4- بمعنى الروح التي سأل عنها اليهود فأجيبوا عنها بأنها من أمر الله وذلك في قوله تعالى: "ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي". .

5- بمعنى المسيح ابن مريم، كقوله تعالى: "إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه" (النساء:171).

أما أرواح بني آدم، فلم تقع تسميتها في القرآن –كما أكد ابن القيم– إلا بالنفس مثل قوله تعالى: "يأيتها النفس المطمئنة" (الفجر:27)، وقوله تعالى: "كل نفس ذائقة الموت

أشار ابن القيم بأنها قد جاءت أي الروح البشرية بلفظ النفس والروح . وهكذا نلاحظ أن ابن القيم قد ميز بوضوح بين مفهومي الروح والنفس في القرآن الكريم، وحقق معناها في الحديث الشريف

أوضح ابن القيم أن مفهوم النفس في القرآن الكريم قد أتى أيضا حسب المعاني الآتية:
- الجسد.
- الذات بأكملها، كما في قوله تعالى: "فسلموا على أنفسكم" (النور:61).
- الروح وحدها كما في قوله تعالى: "أخرجوا أنفسكم" (الأنعام:93).

ووفق هذا التحديد لمفهوم الروح عند ابن القيم، فإنها أي الروح تتصف بالحركة سواء كانت هذه الحركة ذاتية أم خارجية؛ فهي بناء على ذلك تدخل وتخرج، وتمسك وترسل، وتحس وتشعر، وتلتذ وتتألم كما سيأتي شرح ذلك في موضوعه بشيء من التفصيل.

والذي يهمنا حقا في الدراسات النفسية ليس هو موضوع خلق الروح في حد ذاته من عدم خلقها بل تبيان كيفية تأثير الروح في حياة الإنسان وارتباطها بتفكيره ووجدانه وسلوكه. ولا يعني هذا أن موضوع خلق الروح ليس موضوعا جديرا بالتأمل والبحث بل هو مجال علم الكلام وما يرتبط به من العلوم.

الـــــروح والحيـــــــاة

- هل الروح هي الحياة؟

ناقش ابن القيم في كتابه "الروح" موضوع العلاقة بين الروح والحياة وهل هما شيء واحد أم هما شيئان مختلفان، وهل الروح "هي جزء من أجزاء البدن أو عرض من أعراضه أو جسم مساكن له مودع فيه أو جوهر مجرد وهل هي الروح أو غيرها وهل الأمارة واللوامة والمطمئنة نفس واحدة لها هذه الصفات أم هي ثلاث أنفس"

لم يتسرع ابن القيم في الإجابة عن هذه الأسئلة الهامة بل أورد أولا أقوال الفلاسفة وآراء المتكلمين في هذه المسألة التي سماها المسألة التاسعة عشرة؛ فبين أن بعضهم قد رأى أن الروح عرض، وبعضهم رأى عكس ذلك، وأن بعضهم اعتبر الروح والحياة شيئا واحدا بينما اعتبرهما آخرون شيئان مختلفان.

وعليه، فقد أورد ابن القيم ملخص هذه الأفكار المتناقضة في عصره كما أوردها أبو الحسن الأشعري في مقالاته والتي يتبين منها اختلاف المعتزلة والأشعرية وغيرهم حول هذه المسألة، وأن كل الناس قد اختلفوا "في النفس والروح والحياة وهل الروح هي الحياة أو غيرها وهل الروح جسم أم لا. فقال النظام الروح هي جسم وهي النفس وزعم أن الروح حي بنفسه وأنكر أن تكون الحياة والقوة معنى غير الحي القوي. وقال آخرون الروح عرض...وكان الجبائي يذهب إلى أن الروح جسم وأنها غير الحياة والحياة عرض...وقال قائلون الحياة

هي الحرارة الغريزية...وقال آخرون النفس معنى غير الروح والروح غير الحياة والحياة عنده عرض وهو أبو هذيل[43]..."[44].

وبعد استعرض ابن القيم لمختلف الآراء التي حاولت تحديد حقيقة الإنسان مثل رأي أرسطو والمعتزلة والأشعرية وغيرهم انتهى إلى القول بأن الذي عليه "جمهور العقلاء هو أن الإنسان هو البدن والروح معا وقد يطلق اسمه على أحدهما دون الآخر بقرينة"[45].

وانتقل ابن القيم بعد هذا التحديد وإيراد مختلف الآراء إلى توضيح مسألة اختلاف الروح عن البدن. وقد بلغ عدد الأدلة التي أوردها ابن قيم الجوزية للدفاع عن الرأي القائل بأن الروح جسم (شيء) مخالف للبدن وهو رأيه الشخصي مائة وستة عشر دليلا.

ومن الأدلة التي أوردها ابن القيم للدفاع عن اختلاف الروح عن الجسم أنه (الروح): "جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس وهو جسم نوراني علوي خفيف حي متحرك ينفذ في جوهر الأعضاء ويسري فيها سريان الماء في الورد وسريان الدهن في الزيتون والنار في الفحم"[46]. وهذا الجسم ذو صفات وأفعال كالحركة والانتقال والصعود والنزول ومباشرة النعيم والعذاب واللذة والألم وكونه يحبس ويرسل ويقبض ويدخل ويخرج[47]. وقد أحسن ابن القيم في تحديد مفهوم الروح هنا بتحديد صفات الروح ووظائفها بدلا من تحديدها بماهيتها وحقيقتها؛ إذ أن تحديد ماهية مفهوم ما بصفة مجردة أكثر صعوبة في البحث والدراسة.

ورغم إيراد ابن القيم لأدلة رائعة في الدفاع عن موقفه المذكور؛ فقد أورد بعض الأدلة التي تتطلب تمحيصا ومراجعة. فمن أغرب الأدلة التي أوردها ابن قيم الجوزية في الموضوع مثلا قضية لقاء أرواح الموتى والحصول منها على أخبار خفية؛ فقد أورد في هذا قوله: "ما قد اشترك في العلم به عامة أهل الأرض من لقاء أرواح الموتى وسؤالهم لهم وإخبارهم إياهم بأمور خفيت عليهم فرأوها عيانا وهذا أكثر من أن يتكلف إيراده"[48].

وللقارىء أن يتساءل: كيف أورد ابن قيم الجوزية هذا الدليل واقتنع به دون أن يسنده بحجة أو دليل من نص شرعي أو برهان عقلي ؟

من القضايا التي أبدع فيها ابن القيم تأكيده أن النفس واحدة وإنما لها صفات متعددة؛ ورفضه للكلام الذي يشير أن لابن آدم ثلاث أنفس:نفس مطمئنة ونفس لوامة ونفس أمارة، وأن منهم من تغلب عليه هذه ومنهم من تغلب عليه الأخرى

خالف بعض فلاسفة اليونان مثل أرسطو الذي تحدث عن النفس المكونة من ثلاثة أجزاء: الحيوانية والنباتية والعاقلة كما سبق علماء النفس في الإشارة إلى الوظائف المتعددة للنفس الواحدة (الذات)

ومن الأدلة التي أوردها أيضا دون مناقشتها بجدية، الاعتماد على تفسير بعض الأحلام التي جاء بعضها في "كتاب المنامات" لابن أبي الدنيا[49] للتأكيد على تميز الروح عن البدن.

وماعدا هاتين الملاحظتين فإن رأي ابن القيم في تميز "الروح" عن البدن واختلافها عنه رأي جدير بالاحترام والتقدير من الناحيتين العلمية والشرعية؛ وهو أقرب الآراء إلى روح النصوص الصحيحة في القرآن والحديث التي أوردها ابن القيم نفسه للدفاع عن هذا الرأي، ودفع آراء المتكلمين والفلاسفة المخالفة لهذا التفسير.

والملفت للنظر حقا أن ابن القيم قد أورد الحديث الشريف المرتبط بالموضوع وهو قوله (ص): "أن خلق ابن آدم يجمع في بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح...".

والذي يمكن استنتاجه من هذا الحديث الشريف أن الروح شيء مخالف للحياة؛ إذ أن النطفة كائن حي يتشكل من خلايا حية سريعة الانقسام وذلك ما تبينه الدراسات الحديثة في علم الأحياء. وعليه، فإن الروح لاتنفخ في الجنين إلا بعد أن يبلغ 120 يوما أي أربعة أشهر. وهذا موضوع هام جدا تترتب عنه عدة قضايا في مسألة الإجهاض واستنساخ الأجنة وغير ذلك من القضايا الطبية الحديثة المطروحة للنقاش.

أفاض ابن القيم في كتابيه "الروح" و"إغاثة اللهفان..." في شرح مفاهيم النفس المطمئنة والنفس الأمارة بالسوء والنفس اللوامة؛ وربط بين بلوغ الكمال الذي قد يبلغه الإنسان وتحقيق الطمأنينة

أكد ابن القيم أن النفس إذا سكنت إلى الله واطمأنت بذكره وأنابت إليه واشتاقت إلى لقائه وأنست بقربه فهي نفس مطمئنة

الـــــــروح والغيـــــــب

– هل الروح من أمر الغيب؟

أثار ابن القيم سؤالا هاما عن حقيقة الروح وهل هي من أمور الغيب أم لا، وجاء بتفسير طريف جدا ومثير في الوقت نفسه؛ فقد فسر "الروح" الواردة في قوله تعالى: "ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا" بأنها ليست روح الإنسان؛ مبينا أن في ذلك خلافا بين السلف والخلف.

ولكن ابن القيم لم يتوقف عند هذا الحد بل وأكد أن "أكثر السلف بل كلهم على أن الروح المسئول عنها في الآية ليست أرواح بني آدم بل الروح الذي أخبر الله عنه في كتابه أنه يقوم يوم القيامة مع الملائكة وهو ملك عظيم"[50].

ولتدعيم هذا الرأي أورد ابن القيم ما ثبت في الصحيح عن سؤال اليهود لرسول (ص) عن الروح فنزل عليه قوله تعالى: "ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا". وقد علق ابن القيم على الحديث بقوله: "ومعلوم أنهم إنما سألوه عن أمر لا يعرف إلا بالوحي وذلك هو الروح الذي عند الله لا يعلمها الناس وأما أرواح بني آدم فليست من الغيب وقد تكلم فيها طوائف من الناس من أهل الملل وغيرهم فلم يكن الجواب عنها من أعلام النبوة"[51].

إن هذا التفسير الجريء المبدع الذي جاء به ابن القيم لمفهوم الروح في هذه الآية في حاجة لبحوث علمية لتدعيمه إذ يفتح الباب واسعا لريادة واستكشاف غوامض هذا الموضوع بطرق علمية بعيدة عن أساليب الخرافة والتدجيل والشعوذة التي يتبعها الذين يدعون تحضير الأرواح وبعض مدعي العلاج الروحاني باستحضار الجن وتسخيرهم في العلاج وفي غيره من القضايا المزعومة.

وقد زاد ابن القيم الموضوع تفصيلا وإيضاحا عندما أورد مختلف المعاني لمفهوم "الروح" التي وردت في القرآن الكريم على النحو التالي:

1- الروح بمعنى الوحي كما في قوله تعالى: "وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا"(الشورى:53).

2- بمعنى القوة والثبات والنصرة كما في قوله تعالى: "أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه" (المجادلة:22).

3- بمعنى جبريل كقوله تعالى: "نزل به الروح الأمين على قلبك" (الشعراء:193).

4- بمعنى الروح التي سأل عنها اليهود فأجيبوا عنها بأنها من أمر الله وذلك في قوله تعالى: "ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي". .

5- بمعنى المسيح ابن مريم، كقوله تعالى: "إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه" (النساء:171).

وأما أرواح بني آدم، فلم تقع تسميتها في القرآن -كما أكد ابن القيم- إلا

تتمثل حقيقة الطمأنينة في السكون والاستقرار فهي التي سكنت إلى ربها وطاعته وأمره وذكره، ولم تسكن إلى سواه؛ فقد اطمأنت إلى محبته وعبوديته وذكره، واطمأنت إلى أمره ونهيه، واطمأنت إلى الرضى به ربا وبالاسلام دينا وبمحمد رسولا، واطمأنت إلى قضائه وقدره

اطمأنت إلى كفايته وضمانه فاطمأنت بأنه وحده ربها وإلهها ومعبودها ومليكها ومالك أمرها كله، وأن مرجعها إليه، وأنها لاغنى لها عنه طرفة عين

بالنفس مثل قوله تعالى: "يأيتها النفس المطمئنة" (الفجر:27)، وقوله تعالى: "كل نفس ذائقة الموت" (آل عمران:185).

مفهوم "القلب" عند ابن القيم له معنيان؛ معنى روحاني ومعنى جسماني

أما في السنة النبوية، فقد أشار ابن القيم بأنها قد جاءت أي الروح البشرية بلفظ النفس والروح[52]. وهكذا نلاحظ أن ابن القيم قد ميز بوضوح بين مفهومي الروح والنفس في القرآن الكريم، وحقق معناها في الحديث الشريف. وفصل في قضية هامة وهي أن الروح البشرية ليست من أمر الغيب وبالتالي فهي من المواضع القابلة للدراسة والبحث؛ وذلك عكس الاعتقاد السائد بأن هذا الموضوع من الأمور الغيبية التي استأثر الله تعالى بها دون البشر، ومن القضايا التي لا يجوز الخوض والبحث فيها.

ابن قيم الجوزية القلوب إلى ثلاثة أصناف: قلوب صحيحة وقلوب سقيمة وقلوب ميتة

الـــــروح والنفـــــــس

- هل الروح هي النفس؟

أشار ابن القيم أن النفس والروح عند الجمهور شيء واحد، أما هو فقد أكد أن النفس تطلق على عدة أمور من بينها الروح البشرية، وأوضح ابن القيم أن مفهوم النفس في القرآن الكريم قد أتى أيضا حسب المعاني الآتية:

- الجسد.
- الذات بأكملها، كما في قوله تعالى: "فسلموا على أنفسكم" (النور:61).
- الروح وحدها كما في قوله تعالى: "أخرجوا أنفسكم" (الأنعام:93).

من خصائص القلب الصحيح السلامة من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه ومن كل شبهة قد توقع العبد في الشرك بالله.

وإني أرى أن أحسن تعريف للنفس هو التعريف الذي يجمع تفاعل وتكامل الأمور التي ذكرها ابن قيم الجوزية أعلاه (الجسد، الذات والروح) مع الجوانب الوجدانية والعقلية.

- هل النفس واحدة أم ثلاث؟

من القضايا التي أبدع فيها ابن القيم تأكيده أن النفس واحدة وإنما لها صفات متعددة؛ ورفضه للكلام الذي يشير أن لابن آدم ثلاث أنفس:نفس مطمئنة ونفس لوامة ونفس أمارة، وأن منهم من تغلب عليه هذه ومنهم من تغلب عليه الأخرى[53].

وبهذا الموقف يكون ابن القيم قد خالف بعض فلاسفة اليونان مثل أرسطو الذي تحدث عن النفس المكونة من ثلاثة أجزاء: الحيوانية والنباتية والعاقلة كما سبق علماء النفس في الإشارة إلى الوظائف المتعددة للنفس الواحدة (الذات).

وفي هذا الموقف رد قوي لمن يريد أن يجد في القرآن الكريم أو في التراث الإسلامي بصفة عامة سندا أو مرجعا للتقسيم الفرويدي للنفس البشرية إلى ثلاثة بنيات (الهو والأنا والأنا الأعلى) ! كما فعل نجاتي في كتابه "القرآن وعلم النفس" حيث أشار "إلى أنه بعد نزول القرآن بنحو أربعة عشر قرنا من الزمان جاء سيجمند فرويد مؤسس مدرسة التحليل النفسي بنظرية في الشخصية ميز فيها ثلاثة أقسام للنفس نلمس في بعض وظائفها بعض أوجه الشبه بمفاهيم النفس الأمارة بالسوء، والنفس اللوامة، والنفس المطمئنة الواردة في القرآن، وإن كانت توجد أيضا اختلافات كبيرة بين هذه المفاهيم الثلاثة للنفس في القرآن وبين أقسام النفس الثلاثة في نظرية فرويد سنشير إليها فيما بعد".[54]

وقد أفاض ابن القيم في كتابيه "الروح" و"إغاثة اللهفان..." في شرح مفاهيم النفس المطمئنة والنفس الأمارة بالسوء والنفس اللوامة؛ وربط بين بلوغ الكمال الذي قد يبلغه الإنسان وتحقيق الطمأنينة كما سنرى ذلك عند استعراض مفهوم ودرجات الكمال عند ابن قيم الجوزية. وليس المجال هنا مجال مقارنة أفكار ابن القيم بفلاسفة اليونان أو بعلماء النفس الحديث، وإنما إشارات وتنبيهات قد تصلح مجالا لدراسات وبحوث أخرى قد تكون مؤيدة أو مخالفة لما أوردته في هذه العجالة.

ونظرا لأهمية صفات النفس، أورد فيما يأتي شرحا مختصرا لمفاهيم النفس المطمئة، واللوامة والأمارة بالسوء كما جاء ذلك في كتابي "إغاثة اللهفان.." و "الروح" لابن القيم:

1- **النفس المطمئنة:**

أكد ابن القيم أن النفس إذا سكنت إلى الله واطمأنت بذكره وأنابت إليه واشتاقت إلى لقائه وأنست بقربه فهي نفس مطمئنة. وهي التي يقال لها عند الموت: "يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية" (سورة

القلوب السقيمة فهي القلوب التي بها حياة وعلة أي لها مادتان – حسب تعبير ابن قيم- ففيها محبة الله و الإيمان به والإخلاص له، وفيها محبة الشهوات والحرص على تحصيلها وفيها الحسد والكبر والعجب وحب العلو في الأرض والرياسة

أما القلوب الميتة؛ فهي القلوب التي لا تعرف ربها بل هي قلوب تقف مع شهواتها ولو كان في ذلك سخط الله وغضبه، وتجعل هذه القلوب الهوى إمامها و الشهوة قائدها والجهل سايسها والغفلة مركبها

الفجر). وعليه، فإن النفس المطمئنة صفة من صفات النفس قبل خروج الروح ورجوعها إلى بارئها في عالم الغيب.

وتتمثل حقيقة الطمأنينة في السكون والاستقرار فهي التي سكنت إلى ربها وطاعته وأمره وذكره، ولم تسكن إلى سواه؛ فقد اطمأنت إلى محبته وعبوديته وذكره، واطمأنت إلى أمره ونهيه، واطمأنت إلى الرضى به ربا وبالاسلام دينا وبمحمد رسولا، واطمأنت إلى قضائه وقدره، واطمأنت إلى كفايته وضمانه فاطمأنت بأنه وحده ربها وإلهها ومعبودها ومليكها ومالك أمرها كله، وأن مرجعها إليه، وأنها لاغنى لها عنه طرفة عين.[55]

2- النفس اللوامة:

وصف ابن القيم النفس اللوامة بأنها النفس التي أقسم بها سبحانه في سورة القيامة في قوله: "ولا أقسم بالنفس اللوامة". وقد أورد ابن القيم أن العلماء المسلمين اختلفوا في تفسير مفهوم "النفس اللوامة"؛ وصنف اختلافه إلى ثلاث طوائف:

أ- الطائفة الأولى وهي القائلة بأن النفس اللوامة هي النفس التي لاتثبت على حال واحدة، وقد أخذوا هذه اللفظة من التلوم؛ وهو التردد؛ فهي كثير التقلب والتلون، وهي من أعظم آيات الله فإنها تتقلب وتتلون في الساعة الواحدة فضلا عن اليوم والشهر والعام والعمر ألوانمختلفة؛ فتذكر وتغفل وتقبل وتعرض وتلطف وتكشف وتنيب وتجفو وتحب وتبغض وتفرح وتحزن وترضى وتغضب وتطع وتتقى وتفجر إلى أضعاف أضعاف ذلك من حالاتها وتلونها..

ب- الطائفة الثانية وهي القائلة بأن اللفظة مأخوذة من اللوم ثم اختلفوا أيضا في هذا الفهم إلى فرقتين؛ فقالت فرقة هي نفس المؤمن وهذا من صفاتها المجردة، وقالت فرقة أخرى هي نفس المؤمن توقعه في الذنب ثم تلومه عليه فهذا اللوم من الإيمان بخلاف الشقي فإنه لايلوم نفسه على ذنب بل يلومها وتلومه على فواته.

ج- الطائفة الثالثة وهي القائلة بأن هذا اللوم للمؤمن والشقي وللبر والفاجر؛ فالسعيد يلومها على ارتكاب معصية الله وترك طاعته، والشقي لايلومها إلا على فوات حظها وهواها.

القلوب أربعة: قلب أجرد، فيه سراج يزهر؛ فذلك قلب المؤمن. وقلب أغلف وذلك قلب الكافر. وقلب منكوس، وذلك قلب المنافق، عرف ثم أنكر، وأبصر ثم عمي. وقلب تمده مادتان: مادة إيمان، ومادة نفاق، فهو لما غلب عليه منهما

تعرض ابن القيم لمرض القلب الروحاني، ولارتباط هذا المرض بجانب وجداني هام وهو الألم والشعور بالحزن، وبجانب عقلي هام أيضا وهو العلم

3- النفس الأمارة:

وقد قال ابن القيم في وصفها بأنها النفس المذمومة الآمرة بكل سوء؛ وهذا من طبيعتها إلا ما وفقها الله وثبتها وأعانها فما تخلص أحد من شر نفسه إلا بتوفيق من الله تعالى.

وأكد ابن القيم في آخر حديثه عن هذه الصفات بأن الله تعالى امتحن الإنسان بالنفس اللوامة والنفس الأمارة كما أكرمه بالنفس المطمئنة؛ فهي نفس واحدة تكون أمارة ثم لوامة مطمئنة وهي غاية كمالها وصلاحها.

وقد أيد ابن القيم الرأي القائل بأن النفس واحدةولكنها ذات صفات متعددة (أمارة، لوامة ومطمئنة).

ومن الملاحظ أن فهم ابن القيم للنفس وصفاتها مختلف تماما عن فهم سجموند فرويد مثلا إذ ركز هذا الأخير على الصراع الشديد والدائم بين اقسام النفس الثلاثة التي سماها (الهو، الأنا والأنا الأعلى)، كما أن فرويد وبسب مامر به من تجارب شخصية مرة، وما عايشه من أزمات وخاصة خلال الحرب العالمية الأولى قد كون صورة عن الإنسان سلبية للغاية. فالإنسان عنده شرير بطبعه ولا خير فيه أبدا إذ تسيطر عليه غرائز العدوانية والجنس وما يرتبط بها من غرائز وسلوكات سلبية.

بعد هذا العرض لوصف ابن القيم لصفات النفس البشرية، ونظرا لارتباط مفهوم القلب في فكره بالبعد الروحي؛ ولارتباط القلب بأمراض روحانية فإني أورد فيما يأتي تحديد ابن القيم لهذا المفهوم والأساليب التي اقترحها لعلاج الأمراض الروحانية.

أمـــراض القلـــوب وشفاؤهـــا

مفهوم "القلب" عند ابن القيم له معنيان؛ معنى روحاني ومعنى جسماني. أما المعنى الجسماني فسيشرح في المحور التالي الخاص بالجانب الجسماني للإنسان في فكر ابن القيم. أما المعنى الروحاني فيرتبط بالإيمان أو عكسه. وفي هذا التمييز فائدة إذ تمكننا من عدم الخلط بين القلب كعضو جسمي والقلب كشعور وإيمان أو كجهل وكفر كما يتبين أدناه.

أوضح أن مرض القلب في علاقته بالألم نوعان :

1- نوع لا يتألم به صاحبه في الحال وهو مثل مرض الجهل ومرض الشبهات والشكوك. وعلاج هذا النوع يقوم به الرسل وأتباعهم؛ وذلك بتقديم العلم النافع والأدوية الإيمانية واليقين.

2- نوع مؤلم في الحال كالهم والغم والحزن والغيظ

"...وكما أن القلب قد يتألم بما يتألم به البدن ويشقى بما يشقى به البدن، فكذلك البدن يتألم كثيرا بما يتألم به القلب، ويشقيه ما يشقيه

صنف ابن قيم الجوزية القلوب إلى ثلاثة أصناف: قلوب صحيحة وقلوب سقيمة وقلوب ميتة[56]. ومن خصائص القلب الصحيح السلامة من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه ومن كل شبهة قد توقع العبد في الشرك بالله. أما القلوب السقيمة فهي القلوب التي بها حياة وعلة أي لها مادتان –حسب تعبير ابن قيم– ففيها محبة الله و الإيمان به والإخلاص له، وفيها محبة الشهوات والحرص على تحصيلها وفيها الحسد والكبر والعجب وحب العلو في الأرض والرياسة. وأما القلوب الميتة؛ فهي القلوب التي لا تعرف ربها بل هي قلوب تقف مع شهواتها ولو كان في ذلك سخط الله وغضبه، وتجعل هذه القلوب الهوى إمامها و الشهوة قائدها والجهل سايسها والغفلة مركبها[57].

من ذلك مثلا ربطه بين الجانب الروحي والسلوكي بصفة واضحة؛ إذ ربط بين أهمية الدعاء وفعاليته من جهة وغفلة القلب وأكل الحرام من جهة أخرى

وتطرق أيضا ابن القيم لأنواع القلوب من الناحية الروحية في كتابه "طريق الهجرتين وباب السعادتين"[58] حيث صنف القلوب إلى ثلاثة أنواع كذلك وهي:

1– قلب لا يولد ولم يأن له بل هو جنين في بطن الشهوات والغي والجهل والضلال.

2– قلب قد ولد، فقرت عينه بالله... وأنست بقربه الأرواح.

3– قلب في البرزخ ينتظر الولادة صباحا مسا. ويقع هذا القلب بين داعيين: داعي التوحيد وحب الله وطاعته، وداعي الطباع والهوى والشهوات.

اعلموا أن الله لا يقبل دعاء من قلب غافل لاه فهذا دواؤنا مزيل للداء، ولكن غفلة القلب عن الله تبطل قوته وكذلك أكل الحرام يبطل قوته ويضعفها

ورغم ارتباط هذا التقسيم بالجانب الروحي أساسا إلا أنه لاينفصل في الواقع عن الجانبين: الجسمي والوجداني؛ إذا يتأثر هذا القلب في جانبه الروحاني بالطباع والهوى والشهوات. وفي هذا لفتة بارعة في ربط الجانب الروحي بالجوانب الأخرى من جوانب شخصية الإنسان.

وقد أورد ابن القيم مما له علاقة بهذا الموضوع تقسيم الصحابة للقلوب إلى أربعة أقسام حيث صح عن حذيفة بن اليمان قوله:

القلوب أربعة:

قلب أجرد[59]، فيه سراج يزهر؛ فذلك قلب المؤمن.

وقلب أغلف وذلك قلب الكافر.

وقلب منكوس، وذلك قلب المنافق، عرف ثم أنكر، وأبصر ثم عمى.

وقلب تمده مادتان: مادة إيمان، ومادة نفاق، فهو لما غلب عليه منهما[60].

بعد هذا التصنيف، تعرض ابن القيم لمرض القلب الروحاني، ولارتباط هذا المرض بجانب وجداني هام وهو الألم والشعور بالحزن، وبجانب عقلي هام أيضا وهو العلم؛ فأوضح أن مرض القلب في علاقته بالألم نوعان[61]:

1- نوع لا يتألم به صاحبه في الحال وهو مثل مرض الجهل ومرض الشبهات والشكوك. وعلاج هذا النوع يقوم به الرسل وأتباعهم؛ وذلك بتقديم العلم النافع والأدوية الإيمانية واليقين.

2- نوع مؤلم في الحال كالهم والغم والحزن والغيظ؛ وهذا المرض يزول بالأدوية الطبيعية مثلها في

ذلك مثل أمراض البدن التي تعالج بالأدوية الطبيعية أو بأضدادها مثل الفرح والسرور.

وقد أبدع ابن قيم الجوزية عندما أقام علاقة بين صحة القلب (الجانب الروحاني والجانب الوجداني) وصحة البدن حيث قال في ذلك: "...وكما أن القلب قد يتألم بما يتألم به البدن ويشقى بما يشقى به البدن، فكذلك البدن يتألم كثيرا بما يتألم به القلب، ويشقيه ما يشقيه"[62].

وقد ورد هذا الربط بين الجانب الروحي والجوانب الأخرى في شخصية الإنسان مثل البدن والسلوك عدة مرات في مختلف كتب ابن القيم، وخاصة في كتابه "الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي"؛ حيث خصص معظمه لشرح كيفية تأثير المعاصي في مختلف جوانب الشخصية.

ومن ذلك مثلا ربطه بين الجانب الروحي والسلوكي بصفة واضحة؛ إذ ربط بين أهمية الدعاء وفعاليته من جهة وغفلة القلب وأكل الحرام من جهة أخرى حيث قال: "واعلموا أن الله لا يقبل دعاء من قلب غافل لاه فهذا دواؤنا مزيل للداء، ولكن غفلة القلب عن الله تبطل قوته وكذلك أكل الحرام يبطل قوته ويضعفها..."[63]. لاحظ كيف ربط ابن القيم بصفة مباشرة بين الجانب الروحي وهو الدعاء في هذه الحالة وبين الجانب السلوكي وهو أكل الحرام مثلا.

ومن القضايا التي من الممكن أن تطرح إلى النقاش الجدي موضوع "القلب" في كتابات ابن القيم وغيره من العلماء المسلمين؛ فالمعنى المقصود بالقلب

المعنى المقصود بالقلب في أغلب الأحوال عندهم هو الجانب الروحي في الإنسان إلا أنه قد استعمل بمفهوم البصيرة (الإدراك أو الجانب العقلي) كما يشار إليه أحيانا بالمعنى الذي نشير به حاليا للدماغ ووظائفه

غاية مرض البدن أن يفضي بصاحبه إلى الموت. وأما مرض القلب فيفضي بصاحبه إلى الشقاء الأبدي لا شفاء لهذا المرض إلا بالعلم ولهذا سمى الله تعالى كتابه شفاء لأمراض الصدور"

أغلب الأحوال عندهم هو الجانب الروحي في الإنسان إلا أنه قد استعمل بمفهوم البصيرة (الإدراك أو الجانب العقلي) كما يشار إليه أحيانا بالمعنى الذي نشير به حاليا للدماغ ووظائفه.

ولذا فإن ابن القيم مثلا قد اعتبر مكانة "القلب" من الأعضاء بمنزلة الملك من الرعية؛ إذ أن بقية الأعضاء مرتبطة به وتؤدي إليه كما سيشرح ذلك بالتفصيل في الجانب الجسمي.

مرض القلوب عند ابن قيم الجوزية نوعان: مرض الشهوات ومرض الشبهات، وهذان المرضان هما أصل داء الخلق إلا من عافاه الله. ومرض الشبهات (الجهل، النفاق والكفر) أخطر من مرض الشهوات (الهوى، الرياء، الكبر، العجب، الحسد و الفخر)

وقد أكد ابن قيم الجوزية أن أمراض القلوب أخطر من أمراض الأبدان؛ ذلك "لأن غاية مرض البدن أن يفضي بصاحبه إلى الموت. وأما مرض القلب فيفضي بصاحبه إلى الشقاء الأبدي لا شفاء لهذا المرض إلا بالعلم ولهذا سمى الله تعالى كتابه شفاء لأمراض الصدور"[64].

ومرض القلوب عند ابن قيم الجوزية نوعان: مرض الشهوات ومرض الشبهات، وهذان المرضان هما أصل داء الخلق إلا من عافاه الله. ومرض الشبهات (الجهل، النفاق والكفر) أخطر من مرض الشهوات (الهوى، الرياء، الكبر، العجب، الحسد و الفخر).

وقد أحسن ابن القيم عندما أشار إلى نوع آخر من الأمراض؛ وهي الأمراض المركبة من أمراض الشبهات وأمراض الشهوات ومثل ذلك حب الرياسة والعلو في الأرض الناشيء من مرض الشبهة والشهوة؛ أي تخيل فاسد وإرادة باطلة؛ وهذه الأمراض كلها متولدة عن الجهل ودواؤها العلم[65].

تأثير الأرواح في الأجساد

(الإصابة بالعين وعلاجها)

من أهم الأمثلة التي أوردها ابن القيم في موضوع تأثير الأرواح في الأبدان "الإصابة بالعين"؛ فالإصابة بالعين حق وواقع. ولتدعيم هذا الموقف أورد ابن القيم الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن ابن عباس مرفوعا: "العين حق ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين"[66]. وما جاء في صحيح مسلم أيضا عن أنس أن رسول الله (ص) رخص في الرقية من العين والحمة والنملة.

وللدفاع عن هذا الموقف الذي تبناه، فسر كيفية تأثير الروح بخواص معينة في

الجسم بضرب مثال بين فيه تأثير الجانب الوجداني في الجانب الجسمي حيث قال: "أن الله سبحانه خلق في الأجسام والأرواح قوى وطبائع مختلفة، وجعل في كثير منها خواص وكيفيات مؤثرة، ولا يمكن لعاقل إنكار تأثير الأرواح في الأجسام، فإنه أمر مشاهد محسوس، وأنت ترى الوجه كيف يحمر حمرة شديدة إذا نظر إليه من يتحشمه ويستحي منه، ويصفر صفرة شديدة عند نظر من يخافه إليه، وقد شاهد الناس من يسقم من النظر وتضعف قواه، وهذا كله بواسطة الأرواح"[67]. فتأمل كيف بنى ابن قيم الجوزية حجته على الملاحظة القائمة على الحس والمشاهدة ليبرهن أن الأرواح ذات تأثير في الأجسام.

سر كيفية تأثير الروح بخواص معينة في الجسم بضرب مثال بين فيه تأثير الجانب الوجداني في الجانب الجسمي حيث قال: "أن الله سبحانه خلق في الأجسام والأرواح قوى وطبائع مختلفة، وجعل في كثير منها خواص وكيفيات مؤثرة، ولا يمكن لعاقل إنكار تأثير الأرواح في الأجسام، فإنه أمر مشاهد محسوس

وقد أضاف ابن قيم الجوزية لذلك قوله: "وليست العين هي الفاعلة، وإنما التأثير للروح، والأرواح مختلفة في طبائعها وقواها وكيفياتها وخواصها ولشدة ارتباطها بالعين نسب الفعل إليها، وروح الحاسد مؤذية للمحسود أذى بينا..."[68].

ورغم التسلسل المنطقي في حجة ابن قيم الجوزية في الدفاع عن موقفه فإنه لم يوضح كيفية ارتباط الأرواح بالعين؛ هل هو ارتباط سببي أو علائقي؟ وهل هو ارتباط فسيولوجي أو غير ذلك؟ وهذا مبحث في حاجة أيضا إلى متابعة ومناقشة أعمق.

ولكن ابن قيم الجوزية لا يتوقف عند هذا التأثير دون شرحه؛ فقد فسر كيفية تأثير الأرواح في الأجسام بالتأكيد على أنه يتخذ أشكالا متعددة حيث قال: "...والتأثير غير موقوف على الاتصالات الجسمية كما يظن من قل علمه ومعرفته بالطبيعة والشريعة، بل التأثير يكون تارة بالاتصال وتارة بالمقابلة، وتارة بالرؤية، وتارة بتوجه الروح نحو من يؤثر فيه، وتارة بالأدعية والرقى والتعويذات، وتارة بالوهم والتخيل، ونفس العائن لا يتوقف تأثيرها على الرؤية بل قد يكون أعمى فيوصف له الشيء فيؤثر فيه وإن لم يره، وكثير من العائنين يؤثر في المعين بالوصف من غير رؤية..."[69].

إن التفسير الذي أورده ابن قيم الجوزية لتأثير الأرواح في الأجسام تفسير ذكي من الناحية النظرية وهو جدير بأن يشكل فرضيات للبحث العلمي لتأكيدها أو رفضها، ولا يمكن قبول أو رفض هذه الفرضيات دون فحصها وتمحيصها.

وقد سبق ابن قيم الجوزية علماء النفس الحديث بالإشارة إلى مختلف القوى التي تؤثر في الإنسان وخاصة في جانبه الجسمي مثل التخيل والوهم أو ما يسمى حديثا بالإيحاء؛ ويبدو ذلك واضحا في تأكيده على تأثير الوهم والتخيل في الجسم، وتأثير الأعمى في الآخرين دون الاعتماد على العينين والبصر بل على قوى أخرى مثل قوة التأثير بالاتصال اللفظي. ويعزز هذا الرأي قول رسول الله (ص): "إن من البيان سحرا"[70].

ليست العين هي الفاعلة، وإنما التأثير للروح، والأرواح مختلفة في طبائعها وقواها وكيفياتها وخواصها ولشدة ارتباطها بالعين نسب الفعل إليها، وروح الحاسد مؤذية للمحسود أذى بينا

– العلاج الروحاني للعين (الرقية):

وكما أشار ابن قيم الجوزية إلى تعدد أشكال تأثير الأرواح في الأجسام، فإنه قد ذكر عدة طرق لعلاج "الإصابة بالعين" مثل: الرقى والأدعية التي وردت في الحديث الشريف. ومن أشهر الرقى التي اقترحها رقية جبريل للنبي (ص) التي وردت في صحيح مسلم[71]. وكذلك الرقية الإلهية العامة التي وردت في الحديث المرفوع الذي رواه أبو داود عن أبي الدرداء: "من اشتكى منكم شيئا فليقل: ربنا الله الذي في السماء تقدس اسمك، أمرك في السماء والأرض كما رحمتك في السماء، فاجعل رحمتك في الأرض، اغفر لنا حوبنا وخطايانا، أنت رب الطيبين، أنزل رحمة من رحمتك، وشفاء من شفائك على هذا الوجع"[72]. وذكر أيضا أدعية يقولها الخائف من العين، كما ذكر أدعية لترديدها من طرف الشخص العائن.

التأثير غير موقوف على الاتصالات الجسمية كما يظن من قل علمه ومعرفته بالطبيعة والشريعة

وبالاضافة إلى الأدعية والرقى التي ذكرها ابن القيم لعلاج العين، فقد ذكر "الاستغسال"[73] كأسلوب لعلاج العين؛ وذلك بأن "يؤمر العائن بغسل مغابنه وأطرافه وداخلة إزاره، وفيه قولان، أحدهما: أنه فرجه. والثاني: أنه طرف إزاره الداخل الذي يلي جسده من الجانب الأيمن، ثم يصب على رأس المعين من خلفه بغتة، وهذا مما لا يناله علاج الأطباء، ولا ينتفع به من أنكره، أو سخر منه، أو شك فيه، أو فعله مجربا لا يعتقد أن ذلك ينفعه"[74].

انظر هنا إلى تأكيد ابن القيم على أهمية الاعتقاد الراسخ بهذا النوع من العلاج حتى يؤتي ثماره. وفي هذا التأكيد فائدة عظيمة تتمثل في أن تأثير أي نوع من أنواع العلاج وخاصة العلاج الروحاني بأشكاله المختلفة بل وحتى العلاج النفسي الحديث يرتبط بمدى ثقة المريض بالمعالج، وقدرته على علاجه.

ومن أنواع العلاج التي اقترحها أيضا لعلاج العين، الاحتراز من العين بستر محاسن من يخاف عليه من العين. وقد أطنب ابن القيم في إيراد الرقى كعلاج لكثير من الأمراض بما فيها الأمراض الجسمية كعلاج اللدغة بقراءة الفاتحة، وعلاج القروح والجروح والأوجاع بالأدعية والرقى معتمدا في ذلك على إيراد الأحاديث التي جاءت في هذا المعنى.

التأثير يكون تارة بالاتصال وتارة بالمقابلة، وتارة بالرؤية، وتارة بتوجه الروح نحو من يؤثر فيه، وتارة بالأدعية والرقى والتعويذات، وتارة بالوهم والتخيل

ويلاحظ عند عرض ابن القيم لمختلف أنواع العلاج بالرقى الدفاع عن آرائه بإيراد أدلة نقلية وأدلة عقلية قائمة على المشاهدة والقياس المنطقي وبعض الحالات الفردية. وهذا الموضوع شائك فعلا، ويحتاج إلى دراسات وبحوث علمية وتجارب في إطار الثقافة التي يسود فيها هذا الاعتقاد؛ لأن أنواع العلاج التي ذكرها ابن القيم لا تخرج في الظاهر عن قوة الاعتقاد في شيء ما، وعن قوة الإيحاء وتأثير ذلك في السلوك وضرورة اللجوء إلى ذلك عندما تنعدم وسائل أخرى أكثر فعالية في العلاج. وقد تفطن ابن القيم نفسه لهذا حيث أشار إلى أن هذا العلاج لا ينفع شخصا ينكره أو يسخر منه أو يشك فيه أو يفعله من باب التجريب فقط.

نفس العائن لا يتوقف تأثيرها على الرؤية بل قد يكون أعمى فيوصف له الشيء فيؤثر فيه وإن لم يره، وكثير من العائنين يؤثر في المعين بالوصف من غير رؤية

ومن الأمور الهامة التي لفت إليها ابن القيم النظر في علاج بعض هذه الأمراض، ضرورة الجمع بين الدواء الطبيعي والدواء الإلهي (الروحي)[75]. ويدل التأكيد على ضرورة الجمع بين الدواءين على فهم عميق للتأثر والتأثير المتبادل بين مختلف أبعاد الشخصية وتكاملها في الوظائف، وفي الاستفادة من الدواء والعلاج.

الصـــــرع وعلاجـــــه

الصرع حسب تصنيف ابن القيم نوعان: صرع من الأرواح الخبيثة الأرضية، وصرع من الأخلاط الرديئة. والثاني –كما أشار ابن القيم إلى ذلك– "هو الذي يتكلم فيه الأطباء في سببه وعلاجه. وأما صرع الأرواح فأئمتهم وعقلاؤهم يعترفون به ولايدفعونه ويعترفون بأن علاجه بمقابلة الأرواح الشريفة الخيرة العلوية لتلك الأرواح"[76].

وقد قرر ابن القيم أن علاج النوع الثاني من الصرع وهو صرع الأرواح إنما

يكون بأمرين: أمر من جهة المصروع، وأمر من جهة المعالج. وقد عزا ابن القيم صرع الأخلاط إلى اضطراب في الدماغ، واصفا هذا النوع من الصرع بأنه من الأمراض المزمنة والمؤلمة77.

ذكر عدة طرق لعلاج "الإصابة بالعين" مثل: الرقى والأدعية التي وردت في الحديث الشريف

وقد أفاض ابن القيم في علاج الصرع الروحاني في كتابه "زاد المعاد في هدي خير العباد"، فلمن أراد المزيد في الموضوع الرجوع إلى هذا الكتاب. والموضوع في حاجة إلى مناقشة مستفيضة ليس هنا مجالها.

ومن الجوانب التي يمكن إدراجها تحت البعد الروحي والتي أولاها ابن القيم اهتماما كبيرا موضوع علاقة العبد بربه، ودرجات هذه العلاقة التي قد تبلغ درجة عالية لا يعلمها إلى الله تعالى. وفيما يأتي وصف ابن القيم لهذه العلاقة، ووصفه لدرجات الكمال الروحي التي قد يبلغها الإنسان.

علاقة العبد بربه

بالاضافة إلى الأدعية والرقى التي ذكرها ابن القيم لعلاج العين، فقد ذكر "الاستغسال" كأسلوب لعلاج العين

أفاض ابن القيم في كتابه "مدارج السالكين..." في وصف العلاقة بين العبد وربه ومختلف المقامات الروحية التي يمر بها العبد للوصول إلى أرقى درجات كمال هذه العلاقة.

أما في كتابه "الداء والدواء" فقد أكد على ضرورة تقوية العلاقة بين العبد وربه؛ إذ جعل من التقرب إلى الله من أعظم أسباب الخير مستدلا على ذلك بالعقل والنقل والتجربة التاريخية حيث قال: "ولقد دل العقل والنقل والفطرة وتجارب الأمم –على اختلاف أجناسها ومللها ونحلها –على أن التقرب إلى رب العالمين، وطلب مرضاته، والبر والإحسان إلى خلقه من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير، وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة لكل شر، فما استجلبت نعم الله تعالى واستدفعت نقمته بمثل طاعته والتقرب إليه، والإحسان إلى خلقه"78.

من أنواع العلاج التي اقترحها أيضا لعلاج العين، الاحتراز من العين بستر محاسن من يخاف عليه من العين

ولايخفى أن أساس العلاقة بين العبد وربه هو الإيمان بالله وحده لاشريك له، والعمل بمقتضى هذا الإيمان. وقد اعتبر ابن القيم الإيمان والعمل الصالح أساس كل شيء كما سيتضح ذلك أدناه. وعلى أساس العمل ولا شيء غير العمل الصالح يتمايز الأفراد والجماعات بل والأمم والمجتمعات عند الله تعالى.

ولعل مما يرتبط بهذا الموضوع هو موضوع تمايز وتفاوت الأرواح عند مفارقتها للأبدان كما أكد ذلك ابن القيم.

-تفاوت الأرواح

إذا كنا أشرنا إلى الفروق بين الأفراد على مستوى الأبدان وقواهم العقلية والوجدانية، فإن ابن القيم يرشدنا إلى تفاوت الأرواح وتمايزها تمايزا يفوق تمايز الأبدان وتباينها.

فقد أوضح ابن القيم أن الروح تنعم وتعذب، وأن هناك تمايزا في درجات النعيم والعذاب التي تتعرض لها الأرواح باختلاف مكانة الشخص عند الله تعالى. وللتأكيد على هذا التمايز بين الأرواح عند مفارقتها للأجسام، فقد أشار ابن القيم إلى أن هذا التمايز على مستوى الأرواح أظهر وأوضح من تمايز الأبدان حيث قال بهذا الصدد: "...وإذا كان هذا شأن الأرواح فتمييزها بعد المفارقة يكون أظهر من تميز الأبدان. والاشتباه بينهما أبعد من اشتباه الأبدان؛ فإن الأبدان تشتبه كثيرا وأما الأرواح فقل ما تشتبه...وتميز الروح عن الروح بصفاتها أعظم من تميز البدن عن البدن بصفاته ألا ترى أن بدن المؤمن والكافر قد يشتبهان كثيرا وبين روحيهما أعظم التباين والتميز..."[79].

ولكن ابن القيم لم يوفق في رأيي عنما تصدى لقضية التطابق بين أحوال النفس والبدن عندما قال: "إذا تأملت أحوال الأنفس والأبدان شاهدته عيانا قل أن ترى بدنا قبيحا وشكلا شنيعا إلا وجدته مركبا على نفس تشاكله وتناسبه. وقل أن ترى آفة في بدن إلا وفي روح صاحبه آفة تناسبها. ولهذا يأخذ أصحاب الفراسة أحوال النفوس من أشكال الأبدان وأحوالها فقل أن تخطىء في ذلك"[80].

إن منطق الفراسة الذي استند إليه ابن القيم لا يثبت أمام حقائق علم النفسح الحديث وامام الحقائق الطبية؛ وذلك لما للتعلم والتدرب والقدرة على التغير نحو الأفضل في تغيرر أحوال الأنفس وتهذيبها وترقيتها أو عكس ذلك مهما كان شكل أبدان أصحابها التي لاتتغير جوهريا بالتعلم والتدريب.

ومما يؤكد هذه الحقيقة قول ابن القيم نفسه حيث استدرك على قوله عندما أشار في نفس الموضوع إلى دور العادة والتعلم والتدرب في تغيير النفوس والأرواح: "وقل ا، ترى شكلا حسنا وصورة جميلة وتركيبا لطيفا إلا وجدت الروح المتعلقة به مناسبة له. هذا ما لم يعارض ذلك ما يوجب خلافه من تعلم وتدرب واعتياد"[81].

أنواع العلاج التي ذكرها ابن القيم لا تخرج في الظاهر عن قوة الاعتقاد في شيء ما، وعن قوة الإيحاء وتأثير ذلك في السلوك وضرورة اللجوء إلى ذلك عندما تنعدم وسائل أخرى أكثر فعالية في العلاج

في كتابه "الداء والدواء" فقد أكد على ضرورة تقوية العلاقة بين العبد وربه؛ إذ جعل من التقرب إلى الله من أعظم أسباب الخير

ولاشك أن تفاوت الأرواح أساسه كما أشرنا أعلاه نوع علاقة العبد بربه، وأنواع وأساليب السعي في مجالات العمل الصالح.

لكن الإيمان والعمل الصالح درجات ومنازل قد يترقى فيها الإنسان إلى مقامات لا يعلمها إلا الله تعالى. وهذه المدارج قد توصل الإنسان بأبعاده الروحية خاصة إلى مستويات من الكمال قد تعتبر أسمى غايات الكمال في العالم الروحاني.

أساس العلاقة بين العبد وربه هو الإيمان بالله وحده لاشريك له، والعمل بمقتضى هذا الإيمان

ولذا، فقد خصص ابن القيم لموضوع الكمال الروحي خاصة أهمية قصوى في كتابه "مدارج السالكين..." كما سيأتي شرحه في المحور التالي.

مفهوم الكمال عند ابن القيم

أدرجت هذا الموضوع تحت الجانب الروحي لأن ابن القيم وإن تحدث عن كمال أعضاء البدن، وجعل القلب أهم هذه الأعضاء بل وملكها، فإنه قد جعل الكمال الروحي أسمى غايات الكمال وأعلى مراتبه.

أوضح ابن القيم أن الروح تنعم وتعذب، وأن هناك تمايزا في درجات النعيم والعذاب التي تتعرض لها الأرواح باختلاف مكانة الشخص عند الله تعالى

ورغم تأكيد ابن القيم على امكانية بلوغ الإنسان أعلى الدرجات والمنازل في الكمال الروحي فإنه لم يغفل الحديث عن اضطراب هذا الكمال سواء كان ذلك على المستوى البدني العضوي أو على المستوى الروحي وغيرهما.

ولتأكيد هذه المعاني، انطلق ابن القيم من فرضية تتمثل في أن الله تعالى قد جعل لكل عضو من أعضاء الإنسان كمالا؛ فإذا اضطرب هذا الكمال فإنه يسبب قلقا وألما للإنسان؛ وكذلك الأمر بالنسبة للنفس فإن تحقيق الطمأنينة لا يتم مهما نال الإنسان من الدنيا وأسبابها إذا لم يكن الله للإنسان هو المحبوب والمعبود والغاية المطلوبة.

وعليه، فإن الطمأنينة هي تحقيق كمال العلم والإيمان والإرادة والعمل. وفي هذا المعنى أكد ابن قيم الجوزية: "أن الله سبحانه جعل لكل عضو من أعضاء الإنسان كمالا إن لم يحصل له فهو في قلق واضطراب وانزعاج بسبب فقد كماله الذي جعل له مثاله كمال العين بالأبصار، وكمال الأذن بالسمع، وكمال اللسان بالنطق، فإذا عدمت هذه الأعضاء القوى التي بها كمالها حصل الألم والنقص بحسب فوات ذلك، وجعل كمال القلب ونعيمه وسروره ولذته وابتهاجه في معرفته

سبحانه وإرادته ومحبته والإنابة إليه والإقبال عليه والشوق إليه والأنس به، فإذا عدم القلب ذلك كان أشد عذابا واضطرابا من العين التي فقدت النور الباصر ومن اللسان الذي فقد قوة الكلام والذوق ولا سبيل له إلى الطمأنينة بوجه من الوجوه ولو نال من الدنيا وأسبابها ومن العلوم ما نال إلا بأن يكون الله وحده هو محبوبه وإلهه ومعبوده وغاية مطلوبه وأن يكون وحده مستعانه على تحصيل ذلك...فكلام السلف في المطمئنة* يدور على هذين الأصلين طمأنينة العلم والإيمان وطمأنينة الإرادة والعمل"[82].

تميز الروح عن الروح بصفاتها أعظم من تميز البدن عن البدن بصفاته ألا ترى أن بدن المؤمن والكافر قد يشتبهان كثيرا وبين روحيهما أعظم التباين والتميز

ولعل هذا ما يفسر ارتفاع نسب الانتحار في البلدان التي بلغت رقيا لا يضاهى في الرفاهية المادية إلا أن "الطمأنينة" مفقودة جراء الفراغ الروحي مما يؤدي ببعضهم إلى وضع حد لحياتهم كأقصى حد لدركات الإحباط واليأس وفقدان الأمل وفقدان الثقة بالنفس وبالآخرين.

ولتأكيد أسباب تحقيق الكمال وارتباطه بالعلم النافع والعمل الصالح؛ فقد قال ابن القيم في موضع آخر: "فلما كان كمال الإنسان إنما هو بالعلم النافع والعمل الصالح وهما الهدي ودين الحق، وبتكميله لغيره في هذين الأمرين كما قال تعالى (والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) أقسم سبحانه أن كل أحد خاسر إلا من كمل قوته العلمية بالإيمان وقوته العملية بالعمل الصالح وكمل غيره بالتوصية بالحق والصبر عليه. فالحق هو الإيمان والعمل، ولايتمان إلا بالصبر عليهما، والتواصي بهما، كان حقيقا بالإنسان أن ينفق ساعات عمره بل أنفاسه فيما ينال بها المطالب العالية ويخلللص بها من الخسران المبين وليس ذلك إلا بالإقبال على القرآن وتفهمه وتدبره"[83].

لكن ابن القيم لم يوفق في رأيي عندما تصدى لقضية التطابق بين أحوال النفس والبدن

ومن سبل تحقيق الكمال عند ابن القيم، "قمع الشهوات المردية وإخماد نيرانها المحرقة وتسكين هوائجها المتلفة فحينئذ يتفرغ القلب والروح للتفكر فيما فيه كمال العبد ومعرفته والاشتغال به"[84].

والكمال عند ابن قيم الجوزية درجات ودركات؛ أي أنه طريق ذو اتجاهين واحد إلى الأعلى والآخر إلى الأسفل، وأن لكل موجود درجة خاصة به من

الكمال؛ أي أن الله تعالى قد جعل لكل الموجودات (الجمادات كالسيف والحيوانات كالفرس والإنسان) كمالا تختص به وأنها مرشحة للصعود في درجات الكمال كما أنها عرضة للهبوط في دركات التقهقر والنقص.

وقد قال في هذا المعنى : "إن الله خلق الموجودات وجعل لكل شيء منها كمالا يختص به هو غاية شرفه فإذا عدم كماله انتقل إلى الرتبة التي دونه واستعمل فيها فكان استعماله فيها كمال أمثاله فإذا عدم تلك أيضا نقل إلى ما دونها ولا تعطل وهكذا أبدا حتى إذا عدم كل فضيلة صار كالشوك وكالحطب الذي لا يصلح إلا للوقود...وهكذا الآدمي إذا كان صالحا لاصطفاء الله برسالته ونبوته اتخذه رسولا ونبيا، فإذا كان جوهره قاصرا عن هذه الدرجة صالحا لخلافة النبوة وميراثها رشحه لذلك وبلغه إياه فإذا كان قاصرا عن ذلك قابلا لدرجة الولاية رشح لها وإن كان ممن يصلح للعمل والعبادة دون المعرفة والعلم جعل من أهله حتى ينتهي إلى درجة عموم المؤمنين فإن نقص عن هذه الدرجة ولم تكن نفسه قابلة لشيء من الخير استعمل حطبا ووقودا للنار...فكيف يحسن بذي همة...أن يرضى بأن يكون حيوانا وقد أمكنه أن يصير إنسانا وبأن يكون إنسانا وقد أمكنه أن يكون ملكا وبأن يكون ملكا وقد أمكنه أن يكون ملكا في مقعد صدق عند مليك مقتدر فتقوم الملائكة في خدمته...وهذا الكمال إنما ينال بالعلم ورعايته والقيام بموجبه..."[85].

لاشك أن تفاوت الأرواح أساسه كما أشرنا أعلاه نوع علاقة العبد بربه، وأنواع وأساليب السعي في مجالات العمل الصالح

الإيمان والعمل الصالح درجات ومنازل قد يترقى فيها الإنسان إلى مقامات لا يعلمها إلا الله تعالى

وكما أن الإنسان قد يصل إلى أعلى درجات الكمال بالعلم والإيمان والعمل فإنه مرشح أيضا لأعظم دركات النقص وأشد الحسرات إذا كان غافلا عن الفضائل الدينية والعلوم النافعة والأعمال الصالحة[86].

وفي الواقع، فإن الحديث عن الكمال من هذا المنظور قد يشكل قاعدة للتنظير في كل المجالات التي تتعلق بواقع وبسلوك الكائنات وخاصة الإنسان، كما أن هذا المنظور قد يشكل إطارا لدراسة دوافع الإنسان في مجال العمل وغيره من الميادين خاصة في هذا العصر الذي تشتد فيه المنافسة بين الأمم والمجتمعات والطبقات والجماعات والأفراد.

وباختصار شديد، فإن تحقيق كمال النفس عند ابن قيم الجوزية يتم بتحقيق طمأنينة العلم والإيمان وطمأنينة الإرادة والعمل؛ وفي هذا التصور جمع ذكي بين

جوانب مهمة في تكوين شخصية الإنسان وهي: العلم (العقل)، الإيمان (الروح)، الإرادة (الوجدان) والعمل (السلوك) دون إغفال الجانب الجسمي الذي أشار إليه عند حديثه عن كمال الأعضاء.

وقد ربط ابن قيم الجوزية في موضوع آخر بين كمال آدم وإهباطه من الجنة حيث اعتبر هذا الإهباط "عين كماله ليعود إليها على أحسن أحواله فأراد الله سبحانه أن يذيقه وولده من نصب الدنيا وغمومها وهمومها وأوصابها ما يعظم به عندهم مقدار دخولهم إليها في الدار الآخرة فإن الضد يظهر حسنه الضد ولو تربوا في دار النعيم لم يعرفوا قدرها..."[87].

ويلاحظ المتمعن في هذا الرأي أن هذا الموقف يختلف تماما عن موقف رجال الدين المسيحي وبعض المفسرين المسلمين أيضا الذين اعتبروا خروج آدم من الجنة عقابا له، وأن كدحه في الأرض وسعيه فيها عقاب له أيضا عن ذلك العصيان.

وقد اتضح هذا التباين أكثر عندما أكد ابن قيم الجوزية أن إهباط آدم من الجنة وعرضه وذريته لأنواع المحن والبلاء أعطاهم الله تعالى أفضل مما منعهم وهو عهده الذي عهد إليه وإلى بنيه، وأخبر أنه من تمسك به منهم صار إلى رضوانه ودار كرامته[88].

ولاشك، أن موقف ابن القيم هذا من آدم وذريته (الإنسان) موقف إيجابي جدا يضيء بالأمل طريق الإنسان المحفوف بالمكاره وأسباب التشاؤم وأنواع الابتلاء في هذه الدنيا مما قد يشكل لدى الإنسان دافعا أقوى نحو بذل الجهد والعمل المستمر وتحسين الأداء والسلوك بصفة عامة مهما كانت الصعاب والعراقيل التي تواجهه، ومهما كانت أسباب التشاؤم قوية وحاضرة.

وباختصار، فإن الجانب الروحي عند ابن القيم جانب مهم جدا إذ أن البدن بدون روح لايساوي شيئا، وأن الروح قد تكون مستقر العلم والإيمان وسبيل الترقي في درجات الكمال وأن الكمال الحقيقي لا يبلغ إلى في الآخرة. كما قد تكون الروح وعاءا للجهل والكفر والهوى والانحطاط. وفيما يلي تلخيص لأهم فكار ابن القيم في الجانب الروحي.

كذلك الأمر بالنسبة للنفس فإن تحقيق الطمأنينة لا يتم مهما نال الإنسان من الدنيا وأسبابها إذا لم يكن الله للإنسان هو المحبوب والمعبود والغاية المطلوبة

إن الطمأنينة هي تحقيق كمال العلم والإيمان والإرادة والعمل

خلاصـــة البعـــد الروحـــي

- الروح جسم نوراني علوي خفيف حي متحرك.
- الروح جسم (شيء) مخالف للبدن.
- النفس واحدة وصفاتها متعددة.
- الإنسان ذو بعد روحي، وأن هذا البعد ليس من أمور الغيب.
- للأرواح قدرة على التأثير في الأجسام.
- الإيمان بالله أساس ما يتبع ذلك من علم وعمل.
- الطمأنينة هي أعلى درجات الكمال الروحي، والطمأنينة هي كمال العلم والإيمان والإرادة والعمل.
- الإنسان ذو قدرة على الترقي والتدرج في مسالك الكمال إلى أعلى الرتب، وكما هو قادر

على الترقي في مدارج الكمال فإنه عرضة أيضا للتقهقر والانحطاط.

- لا يبلغ الإنسان الكمال الحقيقي إلا في الدار الآخرة.

وعموما، فإن ابن القيم لا ينظر إلى هذا الجانب بصورة منفصلة عن باقي جوانب الإنسان الجسمية والعقلية والوجدانية والسلوكية كما سيتضح ذلك فيما يأتي من الأبعاد ومختلف المحاور المرتبطة بها.

لما كان كمال الإنسان إنما هو بالعلم النافع والعمل الصالح وهما الهدي ودين الحق

قمع الشهوات المردية وإخماد نيرانها المحرقة وتسكين هوائجها المتلفة فحينئذ يتفرغ القلب والروح للتفكر فيما فيه كمال العبد ومعرفته والاشتغال به

3-البعـــد الوجدانـــي

يقصد بالجانب الوجداني في هذه الدراسة كل ما له علاقة بعواطف الإنسان وانفعالاته الإيجابية كالسرور والحب واللذة، والسلبية كالغضب والحزن والجزع والخوف والفزع والألم.

ويلاحظ الدارس لأفكار ابن القيم أنه قد اهتم كثيرا بهذا الجانب حيث تعرض لمواضيع كثيرة ذات علاقة بهذا البعد الإنساني الهام كالحب والعشق والهوى، والغضب والحزن والهم والغم والفزع والخوف، وغير ذلك من القضايا المرتبطة بهذا الجانب، والتي تعرض لها في عدة مواضع من كتبه وخاصة في كتابيه "زاد المعاد في هدي خير العباد"، وفي "مفتاح دار السعادة...".

وقد بين ابن القيم بوضوح العلاقة الموجودة بين البعد الوجداني مثلا والبعد

السلوكي أو الفعل في كتابه "إغاثة اللهفان..". فقد جعل البعد الوجداني بقطبيه: الحب والكراهية أساس الفعل أو السلوك حيث قال في هذا المعنى: "فأصل كل فعل وحركة في العالم من الحب والإرادة فهما مبدأ لجميع الأفعال والحركات كما أن البغض والكراهية مبدأ كل ترك وكف"[89]. وستتضح هذه العلاقة أكثر فيما يأتي من المحاور.

إن تحقيق كمال النفس عند ابن قيم الجوزية يتم بتحقيق طمأنينة العلم والإيمان وطمأنينة الإرادة والعمل

وفيما يلي عرض لبعض أفكاره المتصلة بهذا الجانب والتي تشكل في مجملها صورة واضحة للبعد الوجداني عند الإنسان، ولكيفية تأثره وتأثيره بالأبعاد الأخرى من الشخصية:

دفـــــع الغضـــــب

تعرض ابن قيم الجوزية لموضوع الغضب والشهوة وارتباطهما؛ فاعتبرهما بمثابة صفتين أساسيتين خلقتا في الإنسان، ولو لم يخلقا فيه لكان ملكا؛ وفي هذا قال: "ومنها أن الحكمة الإلهية اقتضت تركيب الشهوة والغضب في الإنسان وهاتان القوتان فيه بمنزلة صفاته الذاتية لا ينفك عنهما وبهما وقعت المحنة والابتلاء وعرض لنيل الدرجات العلى واللحاق بالرفيق الأعلى والهبوط إلى أسفل سافلين...ولا بد أن يقتضي كل واحد من القوتين أثره فلا بد من وقوع الذنب والمخالفات والمعاصي فلا بد من ترتب هاتين القوتين عليهما ولو لم يخلقا في الإنسان لم يكن إنسانا بل كان ملكا فالترتب من موجبات الإنسانية كما قال النبي (ص)[90]كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون ..."[91].

الطمأنينة هي أعلى درجات الكمال الروحي، والطمأنينة هي كمال العلم والإيمان والإرادة والعمل

وأكد ابن قيم الجوزية أيضا في "زاد المعاد..." أن المعاصي جميعها تتولد من الغضب والشهوة، وأن نهاية قوة الغضب القتل، ونهاية قوة الشهوة الزنا، ولذا قرن الله تعالى بينهما في السور التالية: الأنعام والإسراء والفرقان.

الإنسان ذو قدرة على الترقي والتدرج في مسالك الكمال إلى أعلى الرتب، وكما هو قادر

أما علاج الغضب فهو علاج نبوي اقترحه ابن القيم بناء على أمره (ص) من اشتد غضبه أن يطفىء جمرة الغضب بالوضوء، والقعود إن كان قائما، والاضطجاع إن كان قاعدا، والاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم. ومما قاله ابن القيم بهذا الصدد: "ولما كان الغضب والشهوة جمرتين من نار في قلب ابن آدم أمر أن يطفئهما بالوضوء والصلاة والاستعاذة من الشيطان الرجيم"[92].

لاحظ كيف أن الهدي النبوي قد اقترح علاجا فيزيائيا (طبيعيا) باستعمال الماء لعلاج اضطراب انفعالي (وجداني) وهو الغضب، كما اقترح له تغيير الهيئة وهو حل فيزيائي أيضا بينما لم يغفل العلاج الروحاني له أيضا وهو الأمر بالصلاة والاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم.

على الترقي في مدارج الكمال فإنه عرضة أيضا للتقهقر والانحطاط

ومما يرتبط بالغضب من اللانفعالات السلبية الوجد والحقد. وقد أجاد ابن القيم في التمييز بين هذين المفهومين حيث أورد الفروق بينهما على مستوى الإحساس أو الشعور وعلى مستوى السلوك؛ فقد قال في ذلك :"والفرق بين الموجدة والحقد أن الوجد الإحساس بالمؤلم والعلم به وتحرك النفس في رفعه فهو كمال. وأما الحقد فهو إضمار الشر وتوقعه كل وقت فيمن وجدت عليه فلا يزايل القلب أثره. وفرق آخر وهو أن الموجدة ما ينالك منه والحقد لما يناله منك. فالموجدة وجد ما نالك من أذاه، والحقد توقع وجود ما يناله من المقابلة. فالموجدة سريعة الزوال والحقد بطيء الزوال، والحقد يجيء مع ضيق القلب واستيلاء ظلمة النفس ودخانها بخلاف الموجدة فإنها تكون مع قوته (القلب) وصلابته وقوة فوره وإحساسه"[93].

لا يبلغ الإنسان الكمال الحقيقي إلا في الدار الآخرة

إذا لاحظت الفروق التي أوردها ابن القيم بين الوجد والحقد، وكيفية ربطه بين الإحساس والسلوك في هذا المثال رأيت نموذجا واضحا لارتباط الجانب الوجداني (الوجد والحقد) بالجانب السلوكي (النيل من الآخرين بل وحتى بالجانب الجسمي المتمثل في تأثر القلب ضيقا وقوة بالأحاسيس السلبية كالحقد والوجد، وتأثر النفس كلها بالجانب الوجداني السلبي إذ تستولي عليها الظلمة مما يعكر صفو القلب أو الشخصية كلها في هذه الحالة.

أصل كل فعل وحركة في العالم من الحب والإرادة فهما مبدأ لجميع الأفعال والحركات كما أن البغض والكراهية مبدأ كل ترك وكف

والملاحظ أن ابن القيم عند تعرضه للانفعالات السلبية كالغضب والحقد والحزن، فإنه لا يكتفي بشرحها بل يقترح لها العلاج المناسب سواء كان علاجا روحانيا (العلاج بالقرآن الكريم) أو طبيا (العلاج بالأدوية) أو عقليا (تغيير الأفكار) أو سلوكيا (تغيير الهيئة أو تغيير الأفعال)، وستورد أمثلة لذلك فيما سيأتي من المحاور. وسنلاحظ أن ابن القيم قد اقترح في بعض الأحيان علاجا مركبا؛ أي علاجا جامعا للجوانب الجسمية والروحانية وللجوانب العقلية والجدانية والسلوكية.

وكما يرتبط الغضب كانفعال سلبي بالحقد والوجد فقد يرتبط أيضا بانفعالات سلبية أخرى كالحسد والحزن والخوف والجزع مما سيتعرض إلى بعضه أدناه.

الحـــــــزن

ميز ابن القيم بين الحزن والهم والغم تمييزا رائعا قلما نجده عند غيره حيث قال في ذلك: "والمكروه الوارد على القلب إن كان من أمر ماض أحدث الحزن، وإن كان من مستقبل أحدث الهم، وإن كان من أمر حاضر أحدث الغم والله أعلم"[94].

وميز ابن القيم أيضا بين ستة أنواع من البكاء مما يبين لنا أن البكاء لايدل بالضرورة على الحزن بل قد يدل على انفعالات أخرى قد تكون مناقضة. ولا يمكن فهم دلالة البكاء إلا بفهم الموقف أو الأسباب التي أدت إلى البكاء. وفيما يأتي أصناف البكاء كما ذكرها ابن القيم:

1- بكاء الرحمة والرقة.
2- بكاء الخوف والخشية.
3- بكاء المحبة والشوق.
4- بكاء الفرح والسرور.
5- بكاء الجزع من ورود المؤلم وعدم القدرة على احتماله.
6- بكاء الحزن.

والفرق بين بكاء الحزن وبكاء الخوف هو أن بكاء الأول يكون على ما مضى مثل حصول مكروه أو فوات محبوب بينما يقع الثاني لما يتوقع في المستقبل من ذلك. أما الفرق بين بكاء السرور وبكاء الحزن أن دمعة السرور باردة والقلب فرحان لذلك ودمعة الحزن حارة والقلب حزين[95].

وعلاج الحزن عند ابن القيم علاج روحاني يقوم على اللجوء إلى الله تعالى وإلى كتابه الكريم، فقد قال في ذلك: "ولما كان الحزن والهم والغم يضاد حياة القلب واستنارته سأل أن يكون ذهابها بالقرآن.."[96]. وفي هذا مثال للاستعانة بالجانب الروحاني على دفع الجانب الانفعالي السلبي، وللتاثير الايجابي على الجانب الجسمي (حياة القلب واستنارته).

أن المعاصي جميعها تتولد من الغضب والشهوة، وأن نهاية قوة الغضب القتل، ونهاية قوة الشهوة الزنا

لما كان الغضب والشهوة جمرتين من نار في قلب ابن آدم أمر أن يطفئهما بالوضوء والصلاة والاستعاذة من الشيطان الرجيم"

ومن أسباب الحزن الشديد الذي يصيب الإنسان وقوع مصيبة الموت على أحد الأقربين أو الأحباب والأصدقاء مما تتفطر له النفس, ولعلاج حر هذه المصيبة نورد ما اقترحه ابن القيم في هذا المجال من الجمع بين العلاج الروحاني والعلاج المعرفي (العقلي).

الحقد يجيء مع ضيق القلب واستيلاء ظلمة النفس ودخانها بخلاف الموجدة فإنها تكون مع قوته (القلب) وصلابته وقوة فوره وإحساسه

- علاج حر المصيبة (مصيبة الموت)

أورد ابن قيم الجوزية في هذا المجال قوله تعالى: "وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون" (البقرة:156-157). كما أورد ما جاء في الصحيح عن أم سلمة مرفوعا: "ما من أحد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرا منها إلا آجره الله في مصيبته وأخلف له خيرا منها"[97]. وقد علق ابن قيم الجوزية على فائدة هذا الحديث ونفعه بقوله بأنه تضمن أصلين من أصول العلاج:

أحدهما: أن العبد وماله ملك لله جعله عنده عارية.

ميز ابن القيم بين الحزن والهم والغم تمييزا رائعا قلما نجده عند غيره حيث قال في ذلك: "والمكروه الوارد على القلب إن كان من أمر ماض أحدث الحزن، وإن كان من مستقبل أحدث الهم، وإن كان من أمر حاضر أحدث الغم والله أعلم

والثاني: أن المرجع إلى الله ولابد أن تنتهي الدنيا، فإذا كانت هذه البداية والنهاية ففكره فيهما من أعظم علاج هذا الداء.

وإلى جانب هذين الأصلين كأساس لعلاج مصيبة الموت، فقد اقترح ابن قيم الجوزية خمسة عشر علاجا للمصيبة:

1- أن يعلم الإنسان علم اليقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

2- أن يعلم أن الله قد أبقى له مثل ما أخذ منه أو أفضل.

3- أن يتأسى بأهل المصائب، والعلم بأن سرور الدنيا مثل حلم نوم إن أضحكت قليلا أبكت كثيرا.

4- أن يعلم أن الجزع لا يرد بل يضاعف.

5- العلم أن فوات ما ضمن الله على الصبر أعظم من المصيبة نفسها.

6- العلم أن الجزع يشمت الأعداء ويسوء الأصدقاء ويغضب الرب.

7- العلم أن ما يعقب الصبر والاحتساب من اللذة أضعاف ما يحصل له من نفع الفائت لو بقي له.

8- أن يروح قلبه بروح رجاء الخلف من الله فإنه من كل شيء عوض إلا الله.

9- العلم أن حظه من المصيبة ما تحدثه له؛ فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فله السخط.

10- العلم أن آخر الجزع هو الصبر الاضطراري وهو غير محمود ولا يثاب عليه.

11- العلم أن من أنفع الأدوية موافقة ربه فيما أحبه ورضيه له وأن خاصية المحبة وسرها موافقة المحبوب.

12- الموازنة بين أعظم اللذتين وأدومهما؛ لذة التمتع بالمصيبة ولذة التمتع بثواب الله.

13- العلم بأن المبتلى هو أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، وإنه لم يبتله ليهلكه بل ليمتحن إيمانه وليستمع تضرعه.

14- العلم بأن المصائب سبب لمنع الأدواء المهلكة كالكبر والعجب والقسوة.

15- العلم بأن مرارة الدنيا هي بعينها حلاوة الآخرة وبالعكس مصداقا لقوله (ص): "حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات"[98].

- علاج الكرب والهم والحزن:

اقترح ابن قيم الجوزية لعلاج الكرب والهم والحزن ما ورد في الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله (ص) كان يقول عند الكرب:

"لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم"[99].

وبعد أن يورد ابن القيم أن النبي (ص) كان يستعيذ من الهم والحزن وهما قرينان، ومن العجز والكسل وهما قرينان، نسب تخلف كمال العبد للعجز والكسل فقال: "فإن تخلف كمال العبد وصلاحه عنه إما أن يكون لعدم قدرته عليه فهو عجز أو أن يكون قادرا عليه لكن لايريده فهو كسل، وينشأ عن هاتين الصفتين فوات كل خير وحصول كل شر، ومن ذلك الشر تعطيله عن النفع ببدنه وهو الجبن"[100].

فيما يأتي أصناف البكاء كما ذكرها ابن القيم:

1- بكاء الرحمة والرقة.

2- بكاء الخوف والخشية.

3- بكاء المحبة والشوق.

4- بكاء الفرح والسرور.

5- بكاء الجزع من ورود المؤلم وعدم القدرة على احتماله.

6- بكاء الحزن

وأورد ابن قيم الجوزية بالإضافة إلى هذا الحديث أحاديث أخرى ذات علاقة بالموضوع. ومن الممكن تلخيص الأدوية التي جاءت في هذه الأحاديث في خمسة عشر نوعا من الدواء، فإن لم تقو على ذهاب الهم والغم والحزن فهو داء قد استحكم وتمكنت أسبابه ويحتاج إلى استفراغ كلي.[101] وهذه الأدوية هي:

أما الفرق بين بكاء السرور وبكاء الحزن أن دمعة السرور باردة والقلب فرحان لذلك ودمعة الحزن حارة والقلب حزين

1- توحيد الربوبية.

2- توحيد الألوهية.

3- التوحيد العلمي.

4- تنزيه الرب تعالى أن يظلم عبده، أو يأخذه بلا سبب من العبد يوجب ذلك.

5- اعتراف العبد أنه هو الظالم.

6- التوسل بأحب الأشياء إلى الله، وهو أسماؤه الحسنى وصفاته، ومن أجمعها لمعاني الأسماء والصفات "الحي القيوم".

7- الاستعانة بالله وحده.

8- إقرار العبد له بالرجاء.

9- تحقيق التوكل عليه والتفويض إليه، والاعتراف له بأن ناصيته في يده يصرفه كيف يشاء، وأنه ماض فيه حكمه، عدل فيه قضاؤه.

10- أن يرتع قلبه في رياض القرآن، ويجعله لقلبه كالربيع للحيوان، وأن يستضيء به في ظلمات الشبهات والشهوات، وأن يتسلى به عن كل فائت، ويتعزى به عن كل مصيبة، ويستشفي به من أدواء صدره، فيكون جلاء حزنه، وشفاء همه وغمه.

اقترح ابن قيم الجوزية خمسة عشر علاجا للمصيبة:

1- أن يعلم الإنسان علم اليقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

2- أن يعلم أن الله قد أبقى له مثل ما أخذ منه أو أفضل

11- الاستغفار.

12- التوبة.

13- الجهاد.

14- الصلاة.

15- البراءة من الحول والقوة وتفويضها إلى الله.

الفزع وعلاج الأرق

غالبا ما يرتبط الأرق بالمشكلات العاطفية والوجدانية وبالتالي باضطراب الجانب الوجداني للإنسان. ولذا فإن علاجه يكون فعلا بعلاج أسبابه. ومن أهم هذه المسببات الفزع. وعليه، فقد أورد ابن قيم الجوزية لعلاج الأرق حديثا رواد الترمذي عن بريدة قال: اشتكى خالد فقال يا رسول الله: ما أنام الليل من الأرق، فقال: "إذا أويت إلى فراشك، فقل: اللهم رب السماوات السبع، وما أظللن، ورب الأرضين السبع[102] وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، كن لي جارا من شر خلقك كلهم جميعا أن يفرط علي أحد منهم، أو يبغي علي أحد عز جارك، وجل ثناؤك، ولا إله غيرك"[103].

العلم أن ما يعقبه الصبر والاحتساب من اللذة أضعافه ما يحصل له من نفع الفائت لو بقي له

أما لعلاج الفزع الذي يقع أساسا بسبب الكوابيس وهي الأحلام المزعجة التي تؤدي إلى اضطراب نوم الشخص واستيقاظه في أغلب الأحوال، فقد أورد ابن القيم أن رسول الله (ص) قال: إذا فزع أحدكم في النوم فليقل أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه، وشر عباده، ومن همزات الشياطين، وأعوذ بك ربي أن يحضرون. وكان عبد الله بن عمرو يعلمهن من عقل من بنيه، ومن لم يعقل كتبه، فعلقه عليه"[104]

العلم أن حظه من المصيبة ما تحدثه له؛ فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فله السخط

ومما يرتبط بالفزع الأحلام الزعجة التي يراها الإنسان أثناء نومه. ولذا فقد ميز ابن القيم بين الرؤيا والحلم فقال: "الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان فمن رأى رؤيا يكره منها شيئا فيلنفث عن يساره ثلاثا وليتعوذ بالله من الشيطان فإنها لاتضره ولا يخبر بها أحدا وإن رأى رؤيا حسنة فليستبشر ولايخبر بها إلا من يحب"[105]. وأورد أيضا أن الرسول (ص) قد أمر من رأى ما يكرهه أن يتحول عن جنبه الذي كان عليه وأمره أن يصلي.

المحبة ومفاسد العشق

أكد ابن قيم الجوزية أن المحبة الصادقة هي حب الله تعالى، وتوحيده في المحبة؛ أي "لا تنبغي المحبة إلا له وحده، وكل محبة لغيره فهي عذاب على صاحبها ووبال...فمحبة الصور تفوت محبة ما هو أنفع للعبد منها، بل تفوت محبة ما ليس له صلاح ولا نعيم، ولا حياة نافعة إلا بمحبته وحده؛ فليختر العبد

إحدى المحبتين، فإنهما لا يجتمعان في القلب ولا يرتفعان منه، بل من أعرض عن محبة الله وذكره والشوق إلى لقائه ابتلاه الله بمحبة غيره؛ فيعذبه بها في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة، فإما أن يعذبه بمحبة الأوثان، أو بمحبة الصلبان، أو المردان، أو محبة النيران، أو محبة النسوان، أو محبة الأثمان، أو محبة العشراء، أو محبة الخلان، أو محبة ما دون ذلك مما هو في غاية الحقارة والهوان؛ فالإنسان عبد محبوبه كائنا من كان".[106]

العلم أن آخر الجزع هو الصبر الاضطراري وهو غير محمود ولا يثاب عليه

وقد قارن ابن القيم بين التدين الذي يكون عن خوف والتدين الذي يكون عن حب ففضل النوع الثاني وإن لم ينكر دور الخوف في خشية الله وطاعته. ولكن التدين الذي يكون عن اقتناع وحب أرسخ وأثبت كما قال ابن القيم: "ولهذا كان دين الحب أثبت وأرسخ من دين الخوف وأمكن وأعظم تأثيرا. وشاهد مانراه من طاعة المحب لمحبوبه وطاعة الخائف لمن يخافه كما قال بعض الصحابة إنه ليخرج حبه مني من الطاعة مالا يستخرجه الخوف وليس هذا موضع بسط هذا الشأن العظيم"[107].

الموازنة بين أعظم اللذتين وأدومهما: لذة التمتع بالمصيبة ولذة التمتع بثواب الله

فانظر إلى هذا القاعدة الهامة وتأثيرها في التربية والسلوك بصفة عامة؛ فما ينتج عن التربية القائمة على الحب أرسخ وأثبت مما ينتج وينجم عن التربية القائمة على التخويف والترهيب. وهذا بالفعل ما تثبته الدراسات النفسية والتربوية الحديثة وخاصة من خلال التجارب التي أجريت في إطار المدرسة السلوكية وفي إطار مدرسة التعلم الاجتماعي التي بينت أن النموذج الذي يحبه الناس أكثر تأثيرا في عملية تعلمهم وتغيير سلوكهم إذ يقلدونه ويتقمصون شخصيته وسلوكه.

ولعل هذه القاعدة الثمينة توجهنا إلى تفادي التخويف قدر الإمكان في المدارس والأسرة وتعويضه بالحب والحنان والمكافأة. ومن الممكن اعتماد الحب كقاعدة تربوية وسلوكية بين الأفراد وكقاعدة لتشجيع الأطفال خاصة على التحصيل والإبداع.

ولكن الحب سواء كان في بعده الروحي، الوجداني أو السلوكي مراتب ودرجات ومدارج. وقد كتب ابن القيم عن هذه المراتب والمدارج كما يتضح أدناه.

- مراتب الحب

أورد ابن قيم الجوزية مراتب الحب على نحو الترتيب الآتي: أول مراتب الحب العلاقة، ثم الصبابة، ثم الغرام ثم العشق ثم الشوق، وآخر مراتب الحب التتيم أو التعبد أي أن يصير المحب عبدا لمحبوبه، ومنه عبودية العبد لله.[108]

العلم بأن المبتلى هو أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، وإنه لم يبتله ليهلكه بل ليمتحن إيمانه وليستمع تضرعه

ولا يخفى أن مراتب الحب ذات علاقة وتأثير في السلوك والعلاقات بين الأفراد والجماعات بل والمجتمعات. وقد يصل هذا التاثير إلى درجات لا يعلمها إلا الله سواء كان هذا التأثير إيجابيا أم سلبيا.

- تأثير المحبة

بين ابن قيم الجوزية أن للمحبة آثارا وتوابع ولوازم وأحكاما، وهذه الآثار قد تكون محمودة أو مذمومة كما قد تكون نافعة أو ضارة. ومن هذه الآثار: الوجد، الذوق، الحلاوة، الشوق، الأنس، الاتصال بالمحبوب والقرب منه، الانفصال عنه والبعد عنه، الصد والهجران، الفرح والسرور، البكاء والحزن، وغير ذلك.

العلم بأن مرارة الدنيا هي بعينها حلاوة الآخرة وبالعكس مصداقا لقوله (ص): "حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات

وهذه الآثار كلها عبارة عن أنواع مختلفة من السلوك التي تعكس الحالة الوجدانية المرتبطة بالمحبة عند شخص ما؛ وفي هذا ربط ذكي بين الجانب الوجداني والجانب السلوكي، وكيفية تأثير الجانب الوجداني في البعد السلوكي الفردي والاجتماعي. ويتضح هذا التأثير بصفة أوضح عند فهم أنواع المحبة كما شرحها ابن القيم.

- أنواع المحبة

ميز ابن قيم الجوزية بين قسمين من المحبة:

أ) المحبة التي يمكن أن نطلق عليها **المحبة الإلهية**، وتنقسم إلى أربعة أنواع وهي:

1- محبة الله ولا تكفي وحدها في النجاة من النار.

2- محبة ما يحب الله.

3- الحب في الله وفيه.

4- المحبة مع الله، وهي المحبة الشركية أو محبة المشركين.

ب) المحبة الطبيعية: وهي كما حددها ابن قيم الجوزية ميل الإنسان إلى ما يلائم طبعه، كمحبة العطشان للماء، ومحبة النوم والزوجة والولد، وهذه المحبة لا

تذم إلا إذا ألهت عن ذكر الله، وشغلت عن محبته. وقد خصص ابن قيم الجوزية فصلا لمحبة الزوجات؛ فبين أنه لا لوم على المحب فيها بل هي من كمال الإنسان، كما بين بهذا الصدد أن نكاح المعشوقة هو دواء العشق[109].

وقد ميز ابن القيم في موضع آخر بين المحبة النافعة والمحبة الضارة حيث بين أن المحبة النافعة هي التي تجلب لصاحبها ما ينفعه من السعادة والنعيم، والمحبة الضارة هي التي تجلب لصاحبها ما يضره من الشقاء والألم والعناء[110].

بعد هذا التحديد والتمييز، تطرق ابن قيم الجوزية إلى مسألة هامة تتعلق بدور العقل وتأثيره في الجانب الوجداني (في الحب مثلا)؛ فأوضح "أن خاصية العقل إيثار أعلى المحبوبين على أدناهما، وأيسر المكروهين على أقواهما، وتقدم أن هذا من كمال قوة الحب والبغض. ولا يتم له هذا إلا بأمرين: قوة الإدراك وشجاعة القلب"[111].

والملاحظ –كما تمت الاشارة إلى ذلك أعلاه– أن ابن قيم الجوزية قد جعل الحب والإرادة أصل كل شيء ومبدأه، والبغض والكراهة أصل كل ترك وكف، وهاتان القوتان في القلب أصل سعادة العبد وشقاوته.[112]

وهكذا نلاحظ أن ابن قيم الجوزية قد جعل هذين الأصلين: الحب والإرادة أيضا أساسا للسلوك –كما سيوضح ذلك عند الحديث عن الجانب السلوكي– مما يؤدي بنا إلى القول بأن ابن قيم الجوزية لم يهمل دور كل من العقل (قوة الإدراك والإرادة) والوجدان (الحب والكراهية) في السلوك.

وقد زاد هذا الأمر وضوحا عندما قال: "ووجود الفعل الاختياري لا يكون إلا بوجود سببه من الحب والإرادة. وأما عدم الفعل فتارة يكون لعدم مقتضيه وسببه، وتارة يكون لوجود البغض والكراهة المانعة منه، وهذا متعلق الأمر والنهي، وهو الذي يسمى: الكف، وهو متعلق الثواب والعقاب"[113]. وقد أقام ابن القيم أيضا علاقة بين الجانب الوجداني والجانب العقلي حيث بين أن من خواص العقل: "التمييز بين مراتب المحبوبات والمكروهات وإيثار أعلى المحبوبين على أدناهما، واحتمال أدنى المكروهين للتخلص من أعلاهما بقوة الصبر والثبات واليقين"[114].

والملاحظ أن هذا التمييز مهم جدا في عمليات العلاج المعرفي والسلوكي للمشكلات الوجدانية خاصة؛ حيث يدرب الشخص على تحمل أدنى الآلام للتخلص

عن ابن عباس أن رسول الله (ص) كان يقول عند الكرب: "لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم

من الممكن تلخيص الأدوية التي جاءت في هذه الأحاديث في خمسة عشر نوعا من الدواء، فإن لم تقو على ذهاب الهم والغم والحزن فهو داء قد استحكم وتمكنت أسبابه ويحتاج إلى استفراغ كلي

من أشد الآلام كما هو الحال في علاج المدمنين على المخدرات مثلا معرفيا وسلوكيا بعد علاجهم كيميائيا بالأدوية إذا كان الأمر يستدعي ذلك.

وميز ابن قيم الجوزية أيضا بين المحبوب لنفسه والمحبوب لغيره؛ وأكد أن المحبوب لغيره لابد أن ينتهي إلى المحبوب لنفسه؛ دفعا للتسلسل المحال، وكل ما سوى المحبوب الحق (الله) فهو محبوب لغيره؛ ذلك أن من لوازم محبة الله محبة ما يحبه. وكلما كان الشيء أحب إلى الله كان أحب إليه وآثر عنده، وكلما كان أبغض إليه كان أبغض إليه وأبعد منه، وتكون موالاة الرب بحسب ذلك[115].

تنزيه الرب تعالى أن يظلم عبده، أو يأخذه بلا سبب من العبد يوجب ذلك

وبعد هذا التمييز بين المحبوبين، قسم ابن قيم الجوزية المحبوب لغيره إلى قسمين:

1- ما يلتذ المحب بالحصول عليه.

2- ما يألم المحب به ولكن يحتمله لأنه يؤدي به إلى المحبوب، كشرب الدواء الكريه والقتال؛ وذلك رغم محبة النفوس -كما قال ابن قيم الجوزية- للراحة والدعة والرفاهية.

والعاقل لا ينظر إلى لذة المحبوب العاجل فيؤثرها وألم المكروه العاجل فيرغب عنه؛ فإن ذلك يكون شرا له، بل قد يجلب عليه غاية الألم ويفوته أعظم اللذة بل إن العقلاء يتحملون المشاق المكروهة لما يعقبها من اللذة بعدها وإن كانت منقطعة.

التوسل بأحب الأشياء إلى الله، وهو أسماؤه الحسنى وصفاته، ومن أجمعها لمعاني الأسماء والصفات "الحي القيوم"

وبناء على التحديد، فإن ابن قيم الجوزية يصنف الأمور حسب المحبة والكراهية إلى أربعة أصناف[116]:

1- مكروه يوصل إلى مكروه.

2- مكروه يوصل إلى محبوب.

3- محبوب يوصل إلى محبوب.

4- محبوب يوصل إلى مكروه.

وإنه لجدير بالاهتمام والبحث المتعمق ما أورده ابن قيم الجوزية في هذا التصنيف وخاصة فيما يتعلق بأمرين: المكروه الذي يوصل إلى محبوب، والمحبوب الذي يوصل إلى مكروه إذ أن هاتين القضيتين قد تشكلان قاعدة لبلورة

فرضيات للبحث العملي (التطبيقي) في علم النفس العام وفي علم النفس الاجتماعي بل وفي علم النفس العلاجي؛ وذلك كدراسة الاتجاهات وتغييرها، وعلاج الإدمان على المخدرات وغيرها من أشكال الإدمان والسلوكات السلبية.

ومن القضايا الهامة التي تعرض لها ابن قيم الجوزية في انحراف المحبة وشذوذها، وتأثير ذلك على الصحة النفسية للفرد وعلى تدينه، موضوع "عشق الصور"؛ وهو مرض يصيب القلب فيفسده؛ وإذا فسد القلب فسدت الإرادات والأقوال والأعمال وفسد أساس التوحيد[117].

وقد ضرب ابن قيم الجوزية لهذا المرض مثالين: عشق امرأة العزيز لغلامها (يوسف عليه السلام)، واللوطية.

وإذا كان ابن قيم الجوزية قد نظر إلى عشق النساء من طرف الرجال وعشق النساء للرجال نظرة تجمع بين فهم الدواعي الأساسية لذلك والجانب الشرعي، فإنه اكتفى بالتعرض لموضوع اللوطية من الناحية الشرعية فقط؛ وعلاقة ذلك بالتوحيد والشرك.

وتعرض ابن القيم أيضا لمفاسد العشق وما ينجر عنه من عواقب واضطرابات وجدانية وسلوكية بالنسبة للفرد نفسه وبمن يرتبط بهم، ويتفاعل معهم.

- مفاسد العشق

بين ابن قيم الجوزية أن مفاسد العشق تتلخص في:

1- الاشتغال بحب المخلوق وذكره عن حب الله تعالى.

2- عذاب قلب الإنسان بمعشوقه؛ والعشق وإن التذ به صاحبه فهو من أعظم عذاب القلب.

3- أن قلب العاشق أسير في قبضة معشوقه يسومه الهوان، ولكن لسكرة العشق لا يشعر بمصابه.

4- الاشتغال بالعشق عن مصالح الدين والدنيا.

5- أن آفات الدنيا والآخرة أسرع إلى العشاق من النار في يابس الحطب.

6- إذا تمكن العشق من القلب أفسد الذهن وأحدث الوسواس، وربما ألحق صاحبه بالمجانين الذين فسدت عقولهم فلا ينتفعون بها.

تحقيق التوكل عليه والتفويض إليه، والاعتراف له بأن ناصيته في يده يصرفه كيفما يشاء، وأنه ماض فيه حكمه، عدل فيه قضاؤه

أن يرتع قلبه في رياض القرآن، ويجعله لقلبه كالربيع للحيوان، وأن يستضيء به في ظلمات الشبهات والشهوات، وأن يتسلى به عن كل فائت، ويتعزى به عن كل مصيبة، ويستشفي به من أدواء صدره، فيكون جلاء حزنه، وشفاء همه وغمه

7- أن العشق ربما أفسد الحواس أو بعضها إما إفسادا معنويا أوصوريا؛ والرغبات تستر العيوب.

8- اشتغال النفس عن استخدام القوى الحيوانية والنفسية فتتعطل تلك القوى؛ فيحدث بتعطيلها من الآفات على البدن والروح ما يعز دواؤه ويتعذر، فتتغير أفعاله وصفاته ومقاصده ويختل جميع ذلك. وبعد تبيان مفاسد العشق، انتقل ابن قيم الجوزية إلى تفصيل مقامات العشق والعاشق.

ورغم ما أورده ابن قيم الجوزية من مفاسد العشق للفرد ولغيره، فإنه لم يغفل عن مناقشة الجانب الإيجابي للعشق فذكر في ذلك أمثلة ونماذج ومواقف، واختتم كلامه في ذلك بقوله: "ونحن لا ننكر فساد العشق الذي متعلقه فعل الفاحشة بالمعشوق، وإنما الكلام في العشق العفيف، من الرجل الظريف، الذي يأبى له دينه وعفته ومروءته أن يفسد ما بينه وبين الله وما بينه وبين معشوقه بالحرام، وهذا كعشق السلف الكرام، والأئمة الأعلام.."[118].

فانظر إلى تمييز ابن القيم بين الحب العفيف والحب الفاحش، وكيف ربط الأول بالدين والعفة والمروءة، وقرن الثاني بالفاحشة والحرام، وكيف أعطى أمثلة حية على الحب العفيف أو ما سماه بالعشق العفيف.

وفي هذا التمييز ولا شك تكريم للحب كعاطفة إنسانية راقية لا يمكن إنكارها وإنكار تأثيرها مختلف أبعاد الإنسان الوجدانية والعقلية والروحية والسلوكية بل وحتى البدنية، وفيه أيضا نظرة سامية للعشق مما ينأى به عن النظرة المزدرية أو المستغلة.

- أقسام العشاق

صنف ابن قيم الجوزية العشاق إلى ثلاثة أقسام، وبين أن بين هذه الأقسام تفاوت في القوة والضعف، وهذه الأقسام هي[119]:

1- العاشق للجمال المطلق: وهو الذي يهيم قلبه في كل واد، وله في كل صورة جميلة مراد.

2- العاشق للجمال المقيد: ومحبة هذا الصنف أقوى من محبة الصنف الأول؛ إذ هو أثبت على معشوقه وأدوم محبة له سواء طمع في وصاله أم لا.

إذا أويت إلى فراشك، فقل: اللهم رب السماوات السبع، وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، كن لي جارا من شر خلقك كلهم جميعا أن يفرط علي أحد منهم، أو يبغي علي أحد عز جارك، وجل ثناؤك، ولا إله غيرك"

أورد ابن القيم أن رسول الله (ص) قال: إذا فزع أحدكم في النوم فليقل أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه، وشر عباده، ومن همزات الشياطين، وأعوذ بك ربي أن يحضرون

3- العاشق الطامع: وهو أعقل العشاق وأعرفهم، وحبه أقوى من حب الصنفين الآخرين لأن الطمع يمده ويقويه في الوصول إلى معشوقه.

وبغض النظر عن أقسام العشق ونماذجه، فإن العشق قد يصبح اضطرابا وجدانيا أو سلوكيا أو حتى عقليا في أقصى حالاته مما يتطلب علاجه وفق أسس تعيد توازن الجانب الوجداني المضطرب، وتصصح أنواع السلوك الناجمة عن هذا الاضطراب كما قد تصحح التصورات العقلية المرتبطة بهذا الاضطراب. وبالفعل، لم يغفل ابن القيم جانب علاج العشق بل اقترح له عدة أساليب قائمة على فهم عميق للتشابك الموجود بين جوانب وأبعاد الإنسان المختلفة. وفيما يأتي ما أورده ابن القيم في علاج العشق.

أن المحبة الصادقة هي حب الله تعالى، وتوحيده في المحبة؛ أي "لا تنبغي المحبة إلا له وحده، وكل محبة لغيره فهي عذاب على صاحبها ووبال

- علاج العشق

يقوم علاج العشق -عند ابن قيم الجوزية- على عدة أسس بعضها روحية وبعضها عقلية والبعض الآخر سلوكية وهي:

1- العلم أن الابتلاء بهذا الداء المضاد للتوحيد راجع لجهل العبد وغفلته عن ربه.

2- معرفة توحيد الرب وسننه وآياته.

3- الإتيان بالعبادات الظاهرة والباطنة بما يشغل القلب عن دوام الفكرة في العشق.

4- الإكثار من التضرع إلى الله سبحانه وتعالى لصرف هذا المرض عنه.

5- الرجوع بالقلب إلى الله، والإخلاص العمل لله؛ ذلك لأن العشق لا يتمكن إلا من قلب فارغ من حب الله.

6- العلم بأن العقل والشرع يوجبان تحصيل المصالح وتكميلها، وإعدام المفاسد وتقليلها.

7- العلم بأنه ليس في عشق الصور مصلحة دينية ولا دنيوية بل مفسدته الدينية والدنيوية أضعاف ما يقدر فيه من المصلحة[120].

بل من أعرض عن محبة الله وذكره والشوق إلى لقائه ابتلاه الله بمحبة غيره؛ فيعذبه بها في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة

- المحبة واللذة

من القضايا التي اهتم بها ابن قيم الجوزية أيضا موضوع اللذة حيث خصص فصلا لكمال اللذة والفرح وللشروط التي يتحقق بها هذا الكمال؛ فأوضح أنه تابع لأمرين:

1- كمال المحبوب في نفسه وجماله، وأنه أولى بإيثار المحبة من كل ما سواه.

2- كمال محبته واستفراغ الوسع في حبه، وإيثار قربه.

قارن ابن القيم بين التدين الذي يكون عن خوف والتدين الذي يكون عن حب ففضل النوع الثاني

وقد ربط ابن قيم الجوزية بين المحبة واللذة وأقام علاقة إيجابية بينهما حيث قال: "وكل عاقل يعلم أن اللذة بحصول المحبوب بحسب قوة محبته، فكلما كانت المحبة أقوى كانت لذة المحبة أكمل، فلذة من اشتد ضمؤه بإدراك الماء الزلال، ومن اشتد جوعه بأكل الطعام الشهي، ونظائر ذلك على حسب شوقه وشدة إرادته ومحبته"[121].

ولذات الدنيا -كما صنفها ابن قيم الجوزية- ثلاثة أنواع:

1- اللذة الموصلة للذة الآخرة: وهي أعظم وأكمل أنواع اللذات؛ وترتبط بكل ما يوصل إلى ذلك من إيمان وشرب ومأكل وملبس ومنكح وجهاد...

كان دين الحب أثبت وأرسخ من دين الخوف وأمكن وأعظم تأثيرا

2- لذة مانعة للذة الآخرة: وهذه لذة تعقب آلاما أعظم منها وذلك كلذة الذين اتخذوا من دون الله أوثانا مودة بينهم في الحياة الدنيا يحبونهم كحب الله...

3- لذة محايدة: وهي اللذة التي لا تعقب لذة في دار القرار ولا تألما، ولا تمنع لذة دار القرار وإن منعت كمالها؛ وهذه اللذة المباحة هي اللهو المباح؛ وقد أورد ابن القيم لتدعيم رأيه الحديث الشريف:

"كل لهو يلهو به الرجل فهو باطل إلا رميه بقوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته امرأته، فإنهن من الحق"[122].

الغيرة

تعرض ابن قيم الجوزية في كتابه "مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين" لعدة مواضيع تتعلق بالانفعالات والعواطف كالمحبة والغيرة والشوق؛ وقد كان هدفه من ذلك مناقشة المتصوفة فيما ذهبوا إليه في طريق

السلوك إلى الله مبينا أوجه الصواب والضلال في ذلك شارحا مختلف المنازل التي قد يبلغها الإنسان السالك في طريق الله ومبينا مختلف أنواع الانفعالات والمعارف والسلوك التي تصاحب هذا المشوار.

والذي يعنينا في هذا المقام هو شرح ابن القيم لبعض هذه الانفعالات لما لذلك من صلة بالجانب الوجداني في الإنسان.

والغيرة –كما حددها ابن القيم– نوعان: غيرة من الشيء، وغيرة على الشيء[123].

والغيرة من الشيء: هي كراهة مزاحمتك من أي أحد ومشاركته لك في محبوبك.

والغيرة على الشيء: هي شدة الحرص على المحبوب أن يفوز به غيرك أو يشاركك في الفوز فيه.

وأضاف ابن القيم إلى النوعين السابقين من الغيرة نوعين آخرين: غيرة العبد من نفسه على نفسه؛ كغيرته من نفسه على قلبه، ومن تفرقته على جمعيته، ومن صفاته المذمومة على صفاته الممدوحة، وهذه الغيرة خاصية من خصائص النفس الشريفة الزكية العلوية. وغيرة الحق تعالى على عبده، وغيرة العبد لربه لا عليه.

وقد اعتبر ابن القيم أن الغيرة على الله هي غيرة قبيحة بل المطلوب الغيرة لله لا عليه، أي أن لا يجعل من أعماله شيئا لغير ربه، وأن يغضب لمحارمه إذا انتهكت.

وربط ابن القيم بين الغيرة وارتكاب الذنوب والمعاصي؛ أي بين الجانب الوجداني من جهة والجانب السلوكي المتأثر بالجانب الروحي من جهة أخرى؛ فأوضح أن هذه الأخيرة (المعاصي) "تطفىء من القلب نار الغيرة التي هي لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لحياة جميع البدن فإن الغيرة حرارته وناره التي تخرج ما فيه من الخبث والصفات المذمومة...وأشرف الناس وأعلاهم قدرا وهمة أشدهم غيرة على نفسه وخاصته وعموم الناس..."[124].

والغيرة كما شرحها ابن قيم الجوزية قد تكون في أدنى درجاتها وهي الخطرة (ما يخطر على البال) كما قد تصل إلى أقوى الدرجات بحيث تصبح صفة لازمة وهيئة ثابتة راسخة في الإنسان مما يصعب التخلص منها.

أول مراتب الحب العلاقة، ثم الصبابة، ثم الغرام ثم العشق ثم الشوق، وآخر مراتب الحب التتيم أو التعبد أي أن يصير المحب عبدا لمحبوبه، ومنه عبودية العبد لله

خصص ابن قيم الجوزية فصلا لمحبة الزوجات؛ فبين أنه لا لوم على المحب فيها بل هي من كمال الإنسان، كما بين بهذا الصدد أن نكاح المعشوقة هو دواء العشق

ويتم التدرج في قوة هذا الجانب الوجداني كما في غيره من أنواع الانفعالات والسلوك حسب تسلسل أورده ابن القيم؛ حيث يبدأ هذا التسلسل بالخطرة التي تتقلب وسوسة والتي تصير إرادة، وعندما تقوى الإراد تصبح عزيمة ثم تصير فعلا ثم تصير صفة لازمة وهيئة ثابتة في شخصية الإنسان[125]. فانظر كيف ربط ابن القيم بين الجانب الوجداني (الغيرة) والفعل أي السلوك ربطا واضحا ومباشرا.

أن من لوازم محبة الله محبة ما يحبه. وكلما كان الشيء أحب إلى الله كان أحب إليه وآثر عنده، وكلما كان أبغض إليه كان أبغض إليه وأبعد منه، وتكون موالاة الرب بحسب ذلك

وقد اعتبر ابن القيم "الغيرة" جانبا إيجابيا في شخصية المؤمن بل اعتبرها أصل الدين؛ حيث قال: "...على أن أصل الدين الغيرة، ومن لا غيرة له لا دين له؛ فالغيرة تحمى القلب فتحمي له الجوارح فتدفع السوء والفواحش، وعدم الغيرة تميت القلب فتموت الجوارح فلا يبقى عندها دفع البتة..."[126].

ولكن للغيرة نفسها حدودا لاينبغي لها تجاوزها وإلا أدت إلى عواقب غير حميدة حيث قال ابن القيم في ذلك: "والغيرة لها حد إذا جاوزته صارت تهمة وظنا سيئا بالبريء وإن قصرت عنه كانت تغافلا ومباديء دياثة"[127]. والغيرة المقصوة في هذا المقام هي الغيرة على الزوج أو الزوجة أو المحبوب مثلا. ولايخفى أن هذا من باب الغيرة على الشيء.

موضوع "عشق الصور"؛ وهو مرض يصيب القلب فيفسده؛ وإذا فسد القلب فسدت الإرادات والأقوال والأعمال وفسد أساس التوحيد

وعموما، فقد نظر ابن القيم إلى الغيرة نظرة ايجابية، ولم يهتم كثيرا بالغيرة في جانبها السلبي التي قد تقع بين الأفراد بل بين الإخوة أحيانا إذ لم يكن ذلك مجال اهتمامه، وإن أشار إلى هذا الموضوع إشارة سريعة عندما شرح "الغيرة من الشيء".

وعموما، فإن الغيرة من الشيء انفعال سلبي إذ هو مزيج من انفعالات الخوف والغضب والحزن؛ ويشكل الخوف من فقدان مكانة ما أو العجز عن الحصول على هدف ما أو العجز عن منافسة خصم ما أهم عوامل الخوف أثناء الغيرة من الشيء. وقد تشتد الغيرة حتى تصبح حسدا مما قد يؤي إلى الاضرار بالآخرين.

الحسد

الحسد من الناحية النفسية انفعال مركب من الغضب والخوف، وقد وصفه ابن القيم وصفا دقيقا في قوله: "والحسد خلق نفس ذميمة وضيعة ساقطة ليس فيها

حرص على الخير فلعجزها ومهانتها تحسد من يكسب الخير والمحامد ويفوز بها دونها وتتمنى أن لو فاته كسبها حتى يساويها في العدم كما قال تعالى: **(ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء)**، وقال تعالى: **(ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق)**..."[128].

إذا تمكن العشق من القلب أفسد الذهن وأحدث الوسواس، وربما ألحق صاحبه بالمجانين الذين فسدت عقولهم فلا ينتفعون بها

وقد وصف ابن القيم الشخص الحسود بأنه "عدو النعمة متمن زوالها عن المحسود كما زالت عنه هو"[129]. وميز ابن القيم بين الحسود والمنافس تمييزا بارعا حيث وصف كلا منهما بقوله: "والمنافس مسابق النعمة متمن تمامها عليه وعلى من ينافسه فهو ينافس غيره أن يعلو عليه ويحب لحاقه به أو مجاوزته له في الفضل، والحسود يحب انحطاط غيره حتى يساويه في النقصان. وأكثر النفوس الفاضلة الخيرة تنتفع بالمنافسة".

وقد جعل ابن القيم "الحسد" في موضع آخر ركنا من أركان الكفر حيث ربط بين الكفر ببعض أبعاده الوجدانية والجانب السلوكي عندما صنف أركان الكفر إلى أربعة أركان؛ وذلك في قوله: "أركان الكفر أربعة الكبر والحسد والغضب والشهوة فالكبر يمنعه الانقياد، والحسد يمنعه قبول النصيحة وبذلها، والغضب يمنعه العدل، والشهوة تمنعه التفرغ للعبادة. فإذا انهدم ركن الكبر سهل عليه الانقياد، وإذا انهدم ركن الحسد سهل عليه قبول النصح وبذله، وإذا انهدم ركن الغضب سهل عليه العدل والتواضع، وإذا انهدم ركن الشهوة سهل عليه الصبر والعفاف والعبادة وزوال الجبال عن أماكنها"[130].

نحن لا ننكر فساد العشق الذي متعلقه فعل الفاحشة بالمعشوق، وإنما الكلام في العشق العفيف، من الرجل الظريف، الذي يأبى له دينه وعفته ومروءته أن يفسد ما بينه وبين الله وما بينه وبين معشوقه بالحرام، وهذا كعشق السلف الكرام، والأئمة الأعلام

وقد تصل شدة الحسد بالشخص فعلا إلى الكفر ومعاداة الله تعالى حيث اعتبر ابن القيم أن الحسد نوع من معاداة الله ومضادته في قضائه وقدره حيث وصف الحسد بأنه: "نوع من معاداة الله فإنه يكره نعمة الله على عبده وقد أحبها الله، وأحب زوالها عنه والله يكره ذلك فهو مضاد لله في قضائه وقدره ومحبته وكراهيته"[131].

وإذا وصلت شدة الحسد إلى هذه الدرجة فإن الجانب الوجداني السلبي يكون قد طغى على الناحية الروحية وطمس معالمها وصفائها ورمى بها في بحر الظلمات. وهذا أقصى ما قد تصل إليه الانفعالات السلبية في التأثير على الجانب الروحي والسلوكي معا.

الفرح والسرور

عرف ابن القيم الفرح بأنه "لذة تقع في القلب بإدراك المحبوب، ونيل المشتهى، فيتولد من إدراكه حالة تسمى الفرح والسرور، كما أن الحزن والغم من فقد المحبوب، فإذا فقده تولد من فقده حالة تسمى الحزن والغم"[132]. وأعلى درجات الفرح بالنسبة للمؤمن كما أكد ذلك ابن قيم الجوزية هو الفرح بفضل الله ورحمته. فلاحظ كيف ربط أيضا ابن القيم بين الجانب الوجداني (الفرح والسرور) ونيل الحاجة الذي غالبا مايظهر في الجانب العقلي (الإدارك) أو السلوكي (إشباع حاجة ما كالحاجة إلى الأكل أو الزواج أو المسكن أو علاقة أخوية).

انظر إلى تمييز ابن القيم بين الحب العفيف والحب الفاحش، وكيف ربط الأول بالدين والعفة والمروءة، وقرن الثاني بالفاحشة والحرام

وقد ميز ابن القيم بين نوعين من الفرح كما جاء ذلك في القرآن الكريم:

1- فرح مطلق وهو الفرح المذموم كما جاء في قوله تعالى: "لا تفرح، إن الله لا يحب الفرحين".

2- فرح مقيد؛ وهو نوعان: النوع الأول وهو الفرح المقيد بالدنيا ينسى صاحبه فضل الله ومنته؛ وهذا نوع مذموم أيضا كما في قوله تعالى: "حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون". النوع الثاني وهو المقيد بفضل الله ورحمته؛ وذلك كقوله تعالى: "قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا، هو خير مما يجمعون" ، وكقوله تعالى أيضا: "فرحين بما آتاهم الله من فضله".

إن العشق قد يصبح اضطرابا وجدانيا أو سلوكيا أو حتى عقليا في أقصى حالاته مما يتطلب علاجه وفق أسس تعيد توازن الجانب الوجداني المضطرب

وقد أحسن ابن القيم عندما بين العلاقة بين الفرح والاستبشار والرضى؛ حيث عرف الاستبشار بأنه يحدث قبل الحصول على المحبوب إذا كان على ثقة من الحصول عليه، بينما يحدث الفرح بعد الحصول على المحبوب. فالاستبشار حالة وجدانية سابقة لحالة الفرح التي تنتج عن نيل الحاجة أو إشباعها بوجه من الوجوه التي يرضى بها الشخص.

أما علاقة الفرح بالرضى؛ فإن الفرح أعلى أنواع نعيم القلب ولذته، والفرح بالشيء فوق الرضى به؛ فإن الرضى طمأنينة وسكون والفرح لذة وبهجة وسرور؛ فكل فرح راض وليس كل راض فرحا. ولهذا كان الفرح ضد الحزن، والرضى ضد السخط، والحزن يؤلم صاحبه والسخط لا يؤلمه إلا إذا كان مع العجز عن الانتقام[133].

وأكد ابن القيم أن السرور ضد الحزن، ولا يجتمعا معا، وسبب السرور ذوق الشيء السار، وكلما كان الذوق أتم كان السرور به أكمل.

وأوضح ابن القيم أن السرور دافع لأنواع ثلاثة من الحزن:

1- الحزن الأول الذي يورثه خوف الانقطاع عن الركب السائر إلى الله تعالى.

2- الحزن الثاني الذي يذهب سرور الذوق، وهو حزن ظلمة الجهل؛ والجهل نوعان: جهل علم

ومعرفة، وجهل عمل وغي، وكلاهما له ظلمة ووحشة في القلب.

3- الحزن الثالث: وهو الحزن الذي تبعثه وحشة التفرق؛ وهو تفرق الهم والقلب عن الله عز وجل. وللتغلب على هذا النوع من الحزن وما يصاحبه من قلق وحسرات ينبغي للعبد المؤمن أن يسعي لمعرفة الله وصدق معاملته، والرضى بأمره ونهيه، والإخلاص له.

لم يغفل ابن القيم جانب علاج العشق بل اقترح له عدة أساليب قائمة على فهم عميق للتشابك الموجود بين جوانب وأبعاد الإنسان المختلفة

نلاحظ أن ابن القيم في تناوله للجانب الوجداني لا يغفل عن ربط هذا الجانب بالجوانب الأخرى عند الإنسان كما أشرت إلى ذلك في عدة مواضع. ويتضح هذا الربط بصفة بارزة عندما قرن ابن القيم بين أنواع السكرات التي تصيب الإنسان وخاصة سكرات الشهوات والانفعالات واضطراب البصيرة أو الجانب الادراكي عند الإنسان.

الرجوع بالقلب إلى الله، والإخلاص العمل لله؛ ذلك لأن العشق لا يتمكن إلا من قلب فارغ من حب الله

فقد أشار ابن القيم أن السكرات مثل سكرة الشهوة والغضب والفرح والخوف تناقض البصيرة وتطمسها؛ وقد جاء ذلك في قوله: "...فسكر الحرص ينشأ من شدة الرغبة في الدنيا وعدم الزهد فيها...وكذلك سكر الجهل فإن الجهل جهلان جهل العلم وجهل العمل فإذا تحكم الجهلان فلا تسال عن سكر صاحبها، وكذلك سكر الشهوة فإن لها سكرا أشد من سكر الخمر وكذلك سكر الغضب وسكر الفرح وكذلك سكر السلطان والرئاسة...وكذلك الشباب له سكرة قوية... وكذلك الخوف له سكرة تحول بين الخائف وبين حكم العقل.."[134].

فلاحظ كيف ربط ابن القيم بوضح بين الجانب العقلي (البصيرة) والجانب الوجداني (الفرح، الغضب، الخوف والشهوة) مبينا أن سيطرة سكرات هذه الانفعالات تسيطر على البصيرة وتناقضها بل وتؤدي إلى اضطرابها.

وسيتضح أسلوب ابن القيم في ربطه بين الجانب الوجداني والجوانب الأخرى وخاصة الجانب العقلي في المحور الآتي والخاص بالجانب العقلي للإنسان في فكر ابن القيم.

وقبل الانتقال إلى الجانب العقلي أو المعرفي للإنسان في فكر ابن القيم، نعرض فيما يأتي أهم أفكار ابن القيم في الجانب الوجداني.

كل عاقل يعلم أن اللذة بحصول المحبوب بحسب قوة محبته، فكلما كانت المحبة أقوى كانت لذة المحبة أكمل

خلاصة البعد الوجداني

- الغضب والشهوة صفتان أساسيتان للإنسان ولو لم يخلقا فيه لكان ملكا.
- المحبة نوعان: محبة إلهية ومحبة طبيعية.
- هناك علاقة وثيقة بين المحبة واللذة.
- هناك علاقة بين الفرح واللذة.
- السرور طارد لمختلف الأحزان.
- الفرح نوعان: مطلق وهو مذموم ومقيد ومنه المذموم والمحمود.
- الغيرة نوعان: غيرة من شيء وغيرة على شيء.
- الحياء خاصية إنسانية.

4- البعد العقلي (المعرفي)

المقصود بالبعد العقلي أو المعرفي في هذه الدراسة كل ماله علاقة بالتفكير والإدراك واستعمال المنطق والتحكيم العقلي وغير ذلك من العمليات العقلية.

وقد أولى ابن القيم الجانب العقلي اهتماما لا يقل عن اهتمامه بالجوانب الأخرى من شخصية الإنسان. ويبدو ذلك في اهتمامه بنمو العقل عند الطفل، وفي تصنيفه للعقل، وفي تأكيده على أهمية العلم، وارتباط العلم بالإرادة، وغير ذلك من المواضع الهامة التي تعرض في هذا المحور.

اللذة الموصلة للذة الآخرة: وهي أعظم وأكمل أنواع اللذات؛ وترتبط بكل ما يوصل إلى ذلك من إيمان وشرب ومأكل وملبس ومنكح وجهاد...

- نمو العقل

اهتم ابن قيم الجوزية بالنمو العقلي للطفل حيث أشار إلى أن هذا النمو إنما يقع بعد الولادة وأنه يحدث تدريجيا وفي ذلك حكمة بالغة يوردها ابن القيم في قوله: "..ثم إنه اقتضت حكمته أن أخرجك من بطن أمك لا تعلم شيئا بل غبيا لا عقل ولا فهم ولا علم وذلك من رحمته بك فإنك على ضعفك لا تحتمل العقل

والفهم والمعرفة بل كنت تتمزق وتتصدع بل جعل ذلك يتنقل فيك بالتدريج شيئا فشيئا...حتى يتكامل فيك...ثم لا يزال يتزايد فيك العقل والمعرفة شيئا فشيئا حتى تألف الأشياء وتتمرن عليها وتخرج من التأمل لها والحيرة فيها وتستقبلها بحسن التصرف فيها والتدبير لها والإتقان لها وفي ذلك وجوه أخر من الحكمة..."[135].

- أنـــواع العقـــل

الغيرة من الشيء: هي كراهة مزاحمتك من أي أحد ومشاركته لك في محبوبك

تعرض ابن قيم الجوزية لأنواع العقل؛ فميز بين نوعين من العقل: **عقل غريزي، وعقل مكتسب** (مستفاد)؛ فأما العقل الغريزي فهو أب العلم ومربيه ومثمره أما العقل المكتسب فهو ولد العلم وثمرته ونتيجته؛ فإذا اجتمعا في العبد أقبلت عليه السعادة من كل جانب، وإذا فقد أحدهما فالحيوان أحسن حالا منه، وإذا انفرد بأحدهما انتقص الرجل بنقصان أحدهما.

وانتقل ابن القيم بعد هذا التمييز إلى أن الناس (في عصره) قد انقسموا قسمين بخصوص أفضلية كل من العقل الغريزي والعقل المكتسب؛ فمنهم من رجح صاحب العقل المكتسب ومنهم من رجح صاحب العقل الغريزي.

أن الغيرة على الله هي غيرة قبيحة بل المطلوب الغيرة لله لا عليه، أي أن لا يجعل من أعماله شيئا لغير ربه، وأن يغضب لمحارمه إذا انتهكت

أما موقف ابن القيم من هذا الموضوع فقد بينه في قوله: "والتحقيق أن صاحب العقل الغريزي الذي لا علم ولا تجربة عنده آفته التي يؤتى منها الإحجام وترك انتهاز الفرصة لأن عقله يعقله عن انتهاز الفرصة لعدم علمه بها، وصاحب العقل المكتسب يؤتى من الإقدام فإن علمه بالفرص وطرقها يلقيه على المبادرة إليها وعقله الغريزي لا يطيق رده عنه فهو غالبا ما يؤتى من إقدامه والأول من إحجامه، فإذا رزق العقل الغريزي عقلا وإيمانا مستفادا من مشكاة النبوة لا عقلا معيشيا نفاقيا يظن أربابه أنهم على شيء إلا إنهم هم الكاذبون فإنهم يرون العقل أن يرضوا الناس على طبقاتهم...فالعقل كل العقل ما أوصل إلى رضا الله ورسوله.."[136].

فانظر إلى نقد ابن القيم لكل من العقل الغريزي والعقل المكتسب، وإشارته الواضحة إلى ضرورة ربط العقل الغريزي بل وحتى المكتسب بالجانب الروحي وهو الإيمان بالله ورسوله، وربط العقل بما يرضي الله ورسوله.

- العلم والإرادة

لا ينفصل الجانب العقلي –عند ابن قيم الجوزية– عن الجوانب الإنسانية الأخرى وخاصة عن الجانب الوجداني؛ ويتجلى ذلك في إلحاح ابن قيم الجوزية على إقامة علاقة قوية بين العلم والإرادة في مختلف كتبه وخاصة في كتابه:"مفتاح دار السعادة ومنشور العلم والإرادة"، كما ربط ابن القيم بين هذين الجانبين (العلم والإرادة) وموضوع "كمال الإنسان" المشار إليه أعلاه حيث أكد أن عهد الله وصراطه المستقيم "لا يوصل إليه أبدا إلا من باب العلم والإرادة باب الوصول إليه والعلم مفتاح ذلك الباب المتوقف فتحه عليه. وكمال الإنسان إنما يتم بهذين النوعين: همة ترقيه وعلم يبصره ويهديه"[137].

وأقام ابن قيم الجوزية أيضا علاقة واضحة بين هذين الجانبين (المعرفي والوجداني) والجانب الروحي المتمثل في السعادة التي قد يسعى إليها الإنسان؛ فشرح ذلك الارتباط، كما شرح أيضا تفاوت مراتب السعادة بتفاوت مراتب العلم والإرادة عند الأفراد؛ واعتبركمال الإرادة بحسب كمال مرادها، وشرف العلم تابع لشرف معلومه كما اعتبر أن نهاية (كمال) سعادة العبد الذي لا سعادة له بدونها ولا حياة له إلا بها أن تكون إرادته متعلقة بالمراد الذي لا يبلى، وهمته مسافرة إلى حضرة الحي الذي لا يموت ولا طريق له إلى هذا المطلب (الهدف) إلا بالعلم الموروث عن عبده ورسوله[138].

وقد أفاض ابن قيم الجوزية بعد تأكيد العلاقة بين السعادة والعلم والإرادة في تبيان فضل شرف العلم ومكانة العلم والعلماء، وقبح الجهل وأهله، وبين ابن القيم العلاقة بين اللغة والفكر.

اللغة والفكر

من القضايا التي أبدع فيها ابن قيم الجوزية عند حديثه عن العلم والتعلم (كيف علم الله الإنسان ما لم يعلم) إقامته لعلاقة واضحة بين النطق والتصور، وأن الأول (النطق) فرع للثاني (التصور)؛ وفي هذا إشارة واضحة إلى العلاقة الوثيقة بين الفكر واللغة؛ وأن الفكر (التصور) هو أصل اللغة، أي أن اللغة متغير تابع للفكر.

وقد شرح هذه العلاقة بوضوح عندما فسر قوله تعالى: "علم الإنسان ما لم

"...على أن أصل الدين الغيرة، ومن لا غيرة له لا دين له؛ فالغيرة تحمي القلب فتحمي له الجوارح فتدفع السوء والفواحش، وعدم الغيرة تميت القلب فتموت الجوارح فلا يبقى عندها دفع البتة

الحسد خلق نفس ذميمة وضيعة ساقطة ليس فيها حرص على الخير فلعجزها ومهانتها تحسد من يكسب الخير والمحامد ويفوز بها دونها وتتمنى أن لو فاته كسبها حتى يساويها في العدم

يعلم" حيث قال: "فاشتملت هذه الكلمات على أنه معطي الموجودات كلها بجميع أقسامها؛ فإن الوجود له مراتب أربعة إحداها مرتبتها الخارجية المدلول عليها بقوله خلق**؛ المرتبة الثانية الذهنية المدلول عليها بقوله "علم الإنسان ما لم يعلم". المرتبة الثالثة والرابعة اللفظية والخطية فالخطية مصرح بها في قوله الذي علم بالقلم واللفظية من لوازم التعليم بالقلم فإن الكتابة فرع النطق والنطق فرع التصور، فاشتملت هذه الكلمات على مراتب الوجود كلها وأنه سبحانه هو معطيها بخلقه وتعليمه..."[139].

"والمنافس مسابق النعمة متمن تمامها عليه وعلى من ينافسه فهو ينافس غيره أن يعلو عليه ويحب لحاقه به أو مجاوزته له في الفضل، والحسود يحب انحطاط غيره حتى يساويه في النقصان. وأكثر النفوس الفاضلة الخيرة تنتفع بالمنافسة"

- الإنسان والبيان

من الأمور التي أبدع فيها ابن القيم عند حديثه عن العلم وتعلم النطق والكتابة شرحه لمفهوم "البيان" ومراتبه في قوله تعالى: "الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان"، حيث قال: "...فقوله خلق الإنسان إخبار عن الإيجاد الخارجي العيني وخص الإنسان بالخلق لما تقدم. وقوله علم القرآن إخبار عن إعطاء الوجود العلمي الذهني فإنما تعلم الإنسان القرآن بتعليمه كما أنه إنما صار إنسانا بخلقه فهو الذي خلقه وعلمه، ثم قال علمه **البيان** والبيان هنا يتناول ثلاث **مراتب** كل منها يسمى بيانا، أحدها **البيان الذهني** الذي يميز فيه بين المعلومات، الثاني **البيان اللفظي** الذي يعبر به عن تلك المعلومات ويترجم عنها فيه لغيره، الثالث **البيان الرسمي الخطي** الذي يرسم به تلك الألفاظ فيتبين الناظر معانيها كما يتبين السامع معاني الألفاظ فهذا بيان للعين وذاك بيان للسمع والأول بيان للقلب..."[140].

أركان الكفر أربعة الكبر والحسد والغضب والشهوة فالكبر يمنعه الانقياد، والحسد يمنعه قبول النصيحة وبذلها، والغضب يمنعه العدل، والشهوة تمنعه التفرغ للعبادة

ولعل هذا الجانب العقلي (البيان) من ألصق الجوانب بالجانب السلوكي؛ إذ بالبيان والاتصال يمكن للإنسان التفاعل مع غيره من الأفراد والجماعات وبالمجتمع بصفة عامة.

العلم والكمال

من الأوجه التي بين فيها ابن القيم فضل العلم ودوره في كمال الإنسان قوله: "إن العلم حاكم على ما سواه ولا يحكم عليه شيء. فكل شيء اختلف في وجوده وعدمه وصحته وفساده ومنفعته ومضرته ورجحانه ونقصانه وكماله ونقصه

ومدحه وذمه ومرتبته في الخير وجودته ورداءته وقربه وبعده وإفضائه إلى مطلوب كذا وعدم إفضائه وحصول المقصود به وعدم حصوله إلى سائر جهات المعلومات فإن العلم حاكم على ذلك كله؛ فإذا حكم العلم انقطع النزاع ووجب الاتباع وهو الحاكم على الممالك والسياسات والأموال والأقلام؛ فملك لا يتأيد بعلم لا يقوم وسيف بلا علم مخراق لاعب وقلم بلا علم حركة عابث، والعلم مسلط حاكم على ذلك..."[141]

عرف ابن القيم الفرح بأنه "لذة تقع في القلب بإدراك المحبوب، ونيل المشتهى، فيتولد من إدراكه حالة تسمى الفرح والسرور، كما أن الحزن والغم من فقد المحبوب، فإذا فقده تولد من فقده حالة تسمى الحزن والغم

وربط ابن القيم بين مراتب الكمال المختلفة والعلم، وجعله إلى جانب العمل أساس التفاضل في مختلف هذه المراتب التي صنفها إلى أربعة أصناف وهي: **النبوة والصديقية والشهادة والولاية**؛ ولكل من هذه المراتب **أصل وفرع وثمرة** يتفاوت فيها الناس بتفاوت علمهم وعملهم. وقد وضع ابن قيم الجوزية هذا كله تحت عنوان فصل واحد: "الأصل الأول في العلم وفضله وشرفه، وبيان عموم الحاجة إليه وتوقف كمال العبد ونجاته في معاشه ومعاده عليه".

فانظر كيف ربط ابن القيم بين فضل العلم في الدنيا وفضله بالآخرة ولم يهمل أي واحد منهما عكس ما يقوم به بعض المدعين في الدين الذين يركزون على فضل العلم الديني لارتباطه بالآخرة، وعكس ما يقوم به العلمانيون الذين ينكرون البعد الأخروي في تحصيل العلم وتوظيفه.

العلـــــم والإيمـــــان

وتعرض ابن القيم لمسألة عويصة في هذا الباب، وتتعلق بقضية ارتباط العلم بالإيمان؛ فهل العلم يستلزم الاهتداء أو أنه لا يستلزم ذلك وأن الرجل قد يكون عالما وهو ضال على عمد؟

أعلى درجات الفرح بالنسبة للمؤمن كما أكد ذلك ابن قيم الجوزية هو الفرح بفضل الله ورحمته

للإجابة عن هذا السؤال، أشار ابن القيم أولا إلى اختلاف المتكلمين وأرباب السلوك وغيرهم في هذا الموضوع؛ فاستعرض مختلف الآراء والحجج التي أوردها أنصار كل موقف، وانتصر في الأخير للرأي القائل أنه لا يلزم من العلم حصول الاهتداء المطلوب.

وقد أورد الأسباب والموانع التي تؤدي إلى ذلك، ومن أهم هذه الأسباب:

1- ضعف المعرفة الخاصة باقتران العلم بالاهتداء.

2- عدم الأهلية مثل الأرض الصلبة التي لا تنبت ولو أصابها مطر وبذر فيها كل بذر؛ وهذه طائفة من ذوي القلوب القاسية الغليظة الجافة والمريضة.

3- الحسد والكبر؛ وهو ما حدث لإبليس وفرعون وغيرهما من الجبابرة.

-4- الخوف من ضياع الرياسة والملك.

5- الخوف من ضياع الشهوة والمال.

6- محبة الأهل والأقارب والعشيرة والدار والوطن وإيثارها على إيمان قد يجلب التناقض أو الصراع مع هذه المحبة.

فتأمل كيف أشار ابن القيم إلى دور الجوانب النفسية (الحسد والكبر وقسوة القلب والخوف والمحبة المفرطين) المانعة لارتباط العلم بالهداية، وإشارته للجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المانعة لذلك أيضا مثل حب الرئاسة والملك والمال والأهل والوطن.

ارتباط الحواس بالعمليات العقلية

- دور السمع والبصر وارتباطهما بالعمليات العقلية:

أقام ابن قيم الجوزية أيضا علاقة وثيقة بين الجانب العقلي والجانب الجسمي عندما تحدث عن أعضاء السمع والبصر وعلاقتهما بالقلب حيث اعتبر: "أن أشرف ما في الإنسان محل العلم منه وهو قلبه وسمعه وبصره . ولما كان القلب هو محل العلم والسمع رسوله الذي يأتيه به والعين طليعته كان ملكا على سائر الأعضاء يأمرها فتأتمر لأمره ويصرفها فتنقاد له طائعة بما خص به من العلم دونها فلذلك كان ملكها والمطاع فيها وهكذا العلم في الناس كالقلب في الأعضاء".[142] و قد أشار ابن القيم بصفة واضحة إلى دور السمع والبصر في عملية الإدراك كما أشير إلى ذلك في الجانب الجسمي أعلاه .

وبين ابن قيم الجوزية أيضا دور السمع والعقل في تحصيل العلم، فقال بأن السمع والعقل هما أصل العلم وبهما ينال، وأضاف في موضع آخر بأن العقل والسمع والبصر هي أصول العلم[143]. وأورد ابن القيم نقاشا ممتعا حول قضية الأفضلية بين السمع والبصر؛ فاستعرض حجج الفريق الأول المنتصر لأفضلية السمع عن البصر وحجج الفريق الثاني المنتصر لأفضلية البصر عن السمع.

بين العلاقة بين الفرح والاستبشار والرضى؛ حيث عرف الاستبشار بأنه يحدث قبل الحصول على المحبوب إذا كان على ثقة من الحصول عليه، بينما يحدث الفرح بعد الحصول على المحبوب

الفرح أعلى أنواع نعيم القلب ولذته، والفرح بالشيء فوق الرضى به؛ فإن الرضى طمأنينة وسكون والفرح لذة وبهجة وسرور؛ فكل فرح راض وليس كل راض فرحا

ونظرا لما لهذه القضية من أهمية في علم النفس الحديث وخاصة في موضوع الإدراك وعلم النفس الوظيفي (الفسيولوجي) أعرض فيما يلي حجج كل من الفريقين وموقف ابن القيم في الموضوع آخذين بعين الاعتبار أن هذا النقاش قد حدث منذ قرون وقبل اكتشاف طريقة برايل في الكتابة للمكفوفين، ولغة الصم-البكم في التخاطب.

الفرح ضد الحزن، والرضى ضد السخط، والحزن يؤلم صاحبه والسخط لا يؤلمه إلا إذا كان مع العجز عن الانتقام

أ - حجج الفريق الأول (السمع أفضل من البصر):

1- بالسمع تنال سعادة الدنيا والآخرة؛ لأنه من لا سمع له لا يعلم ما جاء به الرسل من هداية.

2- بالسمع يدرك أجل شيء وأفضله وهو كلام الله تعالى الذي فضله على الكلام كفضل الله على خلقه.

3- إن العلوم لا تنال إلا بالتفاهم والتخاطب ولا يحصل ذلك إلا بالسمع.

4- إن مدركات السمع أعم من مدركات البصر؛ فهو أي السمع يدرك الكليات والجزئيات والشاهد والغائب والموجود والمعدوم والبصر لا يدرك إلا بعض المشاهدات، والسمع يسمع كل علم!

"...فسكر الحرص ينشأ من شدة الرغبة في الدنيا وعدم الزهد فيها...وكذلك سكر الجهل فإن الجهل جهلان جهل العلم وجهل العمل فإذا تحكم الجهلان فلا تسأل عن سكر صاحبها

5- يعجز فاقد البصر عن إدراك بعض الأمور الجزئية المشاهدة ويمكنه معرفتها بالصفة ولو تقريبا، أما فاقد السمع فالذي فاته من العلم لا يمكن حصوله بحاسة البصر ولو بصفة تقريبية.

6- إن ذم الله تعالى للكفار بعدم السمع في القرآن أكثر من ذمه لهم بعدم البصر بل إنما ذمهم بعدم البصر تبعا لعدم العقل والسمع.

7- إن ما يورد السمع على القلب من العلوم لا يلحقه تعب ولا ملل مع كثرته، والذي يورده البصر عليه يلحقه فيه التعب والنقص والملل.

ب- حجج الفريق الثاني (البصر أفضل من السمع):

1- إن أعلا النعيم وأفضله في الدار الآخرة لذة هو النظر إلى الله تعالى؛ وهذا إنما ينال بالبصر.

2- البصر مقدمة القلب ورائده فمنزلته أقرب من منزلة السمع، ولهذا كثيرا ما يقرن بينهما في القرآن مثل قوله تعالى: "فاعتبروا يا أولي الأبصار" و قوله

تعالى: "فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور"؛ فالاعتبار بالقلب والبصر بالعين. وهذا ما يدل على شدة الارتباط بين القلب والبصر؛ ولهذا يقرأ الإنسان ما في قلب الآخر من عينه.

3- لليقين مراتب أولها السمع وأعلاها عين اليقين.

4- البصر يؤدي إلى القلب ويؤدي عنه؛ فإن العين مرآة القلب يظهر فيها - كما قال ابن القيم- ما يحبه من المحبة والبغض والموالاة والمعاداة والسرور والحزن وغير ذلك.

هذه أهم حجج الفريقين التي أوردها ابن القيم حول مكانة البصر والسمع وأهميتهما. ولكنه أضاف إلى كل ذلك رأيه القيم في قوله: "والصواب أن كلا منهما له خاصية فضل بها الآخر فالمدرك بالسمع أعم وأشمل والمدرك بالبصر أتم وأكمل فالسمع له العموم والشمول والبصر له الظهور والتمام وكمال الإدراك..."[144].

- الذاكـــــــرة

أطلق ابن القيم على "الذاكرة" اسم "القوة الحافظة"، واعتبر الحفظ والنسيان من الخصائص التي ينفرد بها الإنسان مبينا ما للتذكر والنسيان من جوانب إيجابية على المستوى الوجداني والمستوى السلوكي؛ فقال: "ثم تأمل حكمة الله عز وجل في الحفظ والنسيان الذي خص به نوع الإنسان وما له فيها من الحكم وما للعبد فيهما من المصالح فإنه لولا القوة الحافظة التي خص بها لدخل عليه الخلل في أموره كلها ولم يعرف ماله وما عليه ولا ما أخذ ولا ما أعطى ولا ما سمع ورأى ولا ما قال ولا ما قيل له ولا ذكر من أحسن إليه ولا من أساء إليه ولا من عامله ولا من نفعه فيقرب منه ولا من ضره فينأى عنه ثم كان لا يهتدي إلى الطريق الذي سلكه أولا مرة ولو سلكه مرارا ولا يعرف علما ولو درسه عمره ولا ينتفع بتجربة ولايستطيع أن يعتبر شيئا على ما مضى بل كان خليقا أن ينسلخ من الإنسانية أصلا فتأمل عظيم المنفعة عليك في هذه الخلال وموقع الواحدة منها فضلا عن جميعهن. ومن أعجب النعم عليه نعمة النسيان فإنه لولا النسيان لما سلا شيئا ولا انقضت له حسرة ولا تعزى عن مصيبة ولا مات له حزن ولا بطل

كذلك سكر الشهوة فإن لها سكرا أشد من سكر الخمر وكذلك سكر الغضب وسكر الفرح وكذلك سكر السلطان والرئاسة...وكذلك الشباب له سكرة قوية... وكذلك الخوف له سكرة تحول بين الخائف وبين حكم العقل

المحبة نوعان: محبة إلهية ومحبة طبيعية. هناك علاقة وثيقة بين المحبة واللذة

له حقد ولا تمتع بشيء من متاع الدنيا مع تذكر الآفات ولا رجا غفلة عدو ولا نقمة من حاسد فتأمل نعمة الله في الحفظ والنسيان مع اختلافهما وتضادهما وجعله في كل واحد منهما ضربا من المصلحة"[145].

العلاقة بين الجانب العقلي والجانب الروحي

هناك علاقة بين الفرح واللذة. السرور طارد لمختلف الأحزان

وكما أقام ابن قيم الجوزية علاقة بين الجانب العقلي والجانب الجسمي، فقد أقام علاقة واضحة بين الجانب العقلي و الجانب الروحي حيث بين أن الإنسان قد يحرم من العلم بسبب ارتكاب المعاصي؛ وذلك نظرا لما للمعاصي "من الآثار القبيحة المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله، فمنها حرمان العلم فإن العلم نور يقذفه الله في القلب والمعصية تطفىء ذلك النور..."[146]. وقال أيضا في نفس المعنى: "ومن عقوباتها (أي المعاصي) إنها تؤثر بالخاصة في نقصان العقل فلا تجد عاقلين أحدهما مطيع لله والآخر عاص إلا وعقل المطيع منهما أوفر وأكمل وفكره أصح ...ولهذا تجد خطاب القرآن إنما هو مع أولي الألباب والعقول..."[147].

الفرح نوعان: مطلق وهو مذموم ومقيد ومنه المذموم والمحمود

وقبل الانتقال إلى الجانب السلوكي وتبيان ارتباطه بالجوانب الأخرى في شخصية الإنسان، نورد فيما يلي أهم أفكار ابن القيم في الجانب العقلي للإنسان.

خلاصة البعد العقلي

- القلب معدن العقل.
- القلب منشأ العقل، وفي الرأس فروعه وثمرته.
- الرأس مركز التذكر والتفكر والتعقل.
- العقل نوعان: عقل غريزي وعقل مكتسب.
- النمو العقلي تدريجي.
- هناك علاقة بين وظائف الدماغ والظروف الطبيعية المحيطة بالإنسان وبحالته الوجدانية وبحالته الجسمية.
- ينفرد الإنسان بالحفظ والنسيان.
- البيان ثلاث مراتب: البيان الذهني، البيان اللفظي، والبيان الرسمي الخطي.

5- البعد السلوكي

- استعمل ابن القيم مصطلح "السلوك" بمعنى مختلف عن المعنى العام الذي يستعمل حاليا في العلوم السلوكية (علم النفس والتربية وعلم الاجتماع)؛ فقد ارتبط المعنى العام لهذا المفهوم عند ابن القيم بالسير في طريق الرقي الروحي، وقد اتضح ذلك جليا في كتابه "مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين" حيث بين فيه صعود وترقي الإنسان في درجات ومراتب التقرب إلى الله تعالى بشكل تدريجي بهدف الوصول إلى أعلى مراتب الكمال الروحاني.

الغيرة نوعان: غيرة من شيء وغيرة على شيء

- ويقوم هذا التدرج على إخلاص العبودية لله والترقي في مختلف المقامات، ولكل مقام منازل شرحها ابن القيم بتفصيل كبير في كتابه المشار إليه أعلاه.

- وإذا كان مفهوم السلوك بالمعنى الروحاني هو صلب ما شرحه ابن القيم في كتابه المذكور حيث تم التركيز فيه على العلاقة بين العبد وربه في مختلف المقامات والمنازل التي يسلكها المريد لتحقيق أعلى درجات الكمال الروحي، فإن ابن القيم لم يغفل موضوع السلوك بمعنى الفعل أو العمل كما لم يغفل ارتباط الفعل والعمل بالأبعاد الأخرى المشار إليها أعلاه وخاصة بالبعد الروحي والبعد العقلي كما لم يغفل موضوع العلاقات بين الأفراد كجانب من جوانب السلوك بالمفهوم العصري لهذا المصطلح، كما لم يهمل دور الإرادة والنية في السلوك بالمعنى العام للكلمة (الفعل والعمل).

"...فقوله خلق الإنسان إخبار عن الإيجاد الخارجي العيني وخص الإنسان بالخلق لما تقدم. وقوله علم القرآن إخبار عن إعطاء الوجود العلمي الذهني فإنما تعلم الإنسان القرآن بتعليمه كما أنه إنما صار إنسانا بخلقه فهو الذي خلقه وعلمه

- فقد أشار ابن القيم مثلا إلى تفاعل الإنسان وعلاقته بالأفراد الآخرين أو بالمجتمع في عدة مواضع من كتبه، وستضرب أمثلة لذلك. كما يلاحظ أنه ربط بين الجوانب الجسمية والروحية والعقلية والوجدانية للإنسان من جهة وبينها وبين الجانب السلوكي من جهة أخرى في عدة مواضع في مختلف كتبه كما سيتضح ذلك فيما يأتي من الفقرات.

- ولا غرو في ذلك؛ إذ أن الجانب السلوكي هو انعكاس ومحصلة تفاعل الجوانب المذكورة أعلاه من شخصية الإنسان مع البيئة الطبيعية التي يعيش فيها، والمحيط الاجتماعي الذي يتفاعل فيه مع الآخرين.

- فقد بين مثلا أن المحبة أصل كل فعل كما بين أن المحبة أصل كل دين سواء أكان هذا الدين حقا أم باطلا؛ فإن الدين هو من الأعمال الباطنة والظاهرة، والدين

هو الطاعة والعبادة والخلق؛ ولذا فسر الخلق بالدين في قوله تعالى: "وإنك لعلى خلق عظيم" (القلم:4)[148].

وجعل ابن القيم محبة الله تعالى أصل العبادة حيث قال: "فأصل العبادة محبة الله بل إفراده بالمحبة وأن يكون الحب كله لله فل يحب معه سواه وإنما يحب لأجله وفيه..."[149]. والعبادة وإن كانت ذات أساس روحي إلا أنه فعل وعمل وعلاقة بين العبد ومعبوده. وقد تتجلى هذا العلاقة في اتباع أمر المعبود واجتناب نهيه.

وقد ربط ابن القيم حسب هذا التحديد بين المحبة كجانب عاطفي (وجداني) مثلا من جهة والسلوك أو الجانب العملي من جهة أخرى عندما قال: "وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرها فهي إنما تتحقق باتباع أمره واجتناب نهيه فعند ابتاع الأمر واجتناب النهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة"[150].

وبين ابن القيم أيضا أن الفعل القائم على العمل الصالح (الحسنات) ذو تأثير في مختلف جوانب شخصية الإنسان. فالحسنة وهي العمل الصالح والنافع لها انعكاس إيجابي في الوجه (البدن) وفي القلب (الروح) وفي الجانب المادي (الرزق) وفي السلوك (التفاعل مع الآخرين) وكذلك الأمر للسيئة التي لها مفعول عكسي على الجوانب المذكورة.

وقد استشهد ابن القيم على تأكيد وجود هذا التأثير وعلى العلاقة الموجودة بين الفعل والجوانب الأخرى عند الإنسان بقول ابن عباس رضي الله عنهما: "إن للحسنة ضياء في الوجه ونورا في القلب وقوة في البدن وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الخلق وأن للسيئة سوادا في الوجه وظلمة في القلب ووهنا في البدن ونقصا في الرزق وبغضة في قلوب الخلق"[151].

ولكن العمل الصالح لا يأتي من فراغ بل هو كما قال ابن القيم ثمرة للتفكر؛ إذ أن التفكر أساس العلم النافع، والعمل النافع هو أساس العمل الصالح[152]. وفي هذا التأكيد ربط واضح بين الجانب السلوكي (العمل) والجانب العقلي (التفكر) بالاضافة إلى البعد الروحي (صلاحية العمل).

قال علمه البيان والبيان هنا يتناول ثلاث مراتب كل منها يسمى بيانا، أحدها البيان الذهني الذي يميز فيه بين المعلومات، الثاني البيان اللفظي الذي يعبر به عن تلك المعلومات ويترجم عنها فيه لغيره، الثالث البيان الرسمي الخطي الذي يرسم به تلك الألفاظ فيتبين الناظر معانيها كما يتبين السامع معاني الألفاظ فهذا بيان للعين وذاك بيان للسمع والأول بيان للقلب

دور النية في السلوك

مهما كانت أهمية الروابط والعلاقات بين السلوك والأبعاد الأخرى المشار إليها أعلاه، فإن ابن القيم قد جعل النية أساس العمل الصالح وأساس كل سلوك يقصد به التقرب من الله. ولذا قال في هذا الصدد: "..فإذا عدمت النية كان العمل عاديا لاعباديا والعادات لا يتقرب بها إلى باريء البريات وفاطر المخلوقات. فإذا عري العمل عن النية كان كالأكل والشرب والنوم الحيواني البهيمي الذي لايكون عبادة بوجه فضلا أن يؤمر به ويرتب عليه الثواب والعقاب والمدح والذم..."[153].

من الأوجه التي بين فيها ابن القيم فضل العلم ودوره في كمال الإنسان قوله: "إن العلم حاكم على ما سواه ولا يحكم عليه شيء.

ولم يكتف ابن القيم بهذا المقام للنية في التمييز بين العادة والعبادة بل جعلها روح العبادة حيث قال: "ومعلوم أن النية جزء من العبادة بل هي روح العبادة كما تبين أن العمل الذي لم ينو ليس بعبادة ولا مأمور به فلا يكون فاعله متقربا إلى الله تعالى.."[154].

وهكذا، فقد جعل ابن القيم للنية بعدا روحيا وهو التقرب من الله مما يتطلب أولا الإيمان بالله ثم التقرب إليه بكل الأعمال حيث تصبح كل أفعال العبد وأعماله ذات معنى وهدف وغاية سامية تتمثل في إرضاء الله ونيل ثوابه وأجره.

الأصل الأول في العلم وفضله وشرفه، وبيان عموم الحاجة إليه وتوقف كمال العبد ونجاته في معاشه ومعاده عليه"

وعليه، فالنية وإن كان لها بعد عقلي وبعد وجداني إلا أن بعدها الروحي أهم هذه الأبعاد كلها في المنظور الإسلامي كما شرح ذلك ابن القيم انطلاقا من الحديث الصحيح في هذا المعنى.

وكما أن هناك تفاوتا بين السلوك القائم على النية والسلوك غير القائم على النية بالمعنى الروحي، فإن الناس يتفاوتون أيضا في ذلك بل ويتفاوتون في السلوك بناءا على هذا النوع من النية بصفة عامة، وهذا راجع لعدة عوامل وراثية وبيئية وثقافية ودينية يمكن تلخيصها في مفهوم الفروق الفردية.

ولاشك أن الملاحظة المباشرة تبين لنا أن الناس مختلفون ومتفاوتون في ذلك تفاوتا بينا قد يصل إلى حد التناقض والتنافر بسبب فروقهم الفردية والثقافية والدينية وغير ذلك من الفروق بل إن هذا التباين حاصل حتى في إطار الدين الواحد والثقافة الواحدة والبيئة الجغرافية الواحدة.

وقد عزا ابن القيم هذه الفروق إلى تباين الأرواح والأنفس كما عزاها أيضا كما سيتبين ذلك في المحور الآتي إلى اختلاف طباع الناس.

الفروق الفردية في السلوك

تعرض ابن قيم الجوزية إلى مسألة هامة تتمثل في الفروق الفردية أو اختلاف الطباع وتأثير ذلك في الوجدان والسلوك؛ فقال مثلا في هذا المعنى: "فطباع النفس مختلفة؛ فمنهم من يتضاعف حبه عند بذل المرأة ورغبتها ويضمحل عند إبائها وامتناعها...ومنهم من يتضاعف حبه وإرادته بالمنع فيشتد شوقه...، ويحصل به من اللذة نظير ما يحصل له من اللذة بالظفر بالضد بعد امتناعه ونفاره، واللذة بإدراك المسألة بعد استصعابها وشدة الحرص على إدراكها"[155].

فانظر كيف برر ابن القيم اختلاف الناس في حبهم (جانب وجداني)، وسلوكهم (تضاعف الحب واضمحلاله) بسبب اختلاف طباعهم.

وسيتضح تفاوت الناس في صفاتهم وسلوكهم ومنازلهم عند الحديث في المحور التالي على تفاوت الناس في مراتب الجهاد وتفاوتهم في العلم والأخلاق.

ولكن، ومهما كانت وجاهة التفسير الذي قدمه ابن القيم لتفاوت الناس في سلوكهم بسبب اختلاف طبائعهم، فإن اختلاف وتفاوت الناس في سلوكهم وتفكيرهم ووجدانهم راجع إلى عدة عوامل متفاعلة سواء كانت وراثية، بيئية، دينية أم ثقافية وليس فقط لاختلاف الطباع الذي قد يعود لعوامل وراثية في الأساس.

وإذا كانت الطباع وما ينتج عنها من سلوك تتحدد أساسا بالجانب الوراثي فإن السلوك قد يتحدد أيضا كما سيتبين أدناه بالتعلم والتنشئة الاجتماعية والتثقيف والتربية.

البعد الاجتماعي للسلوك

من القضايا الهامة التي تعرض لها ابن قيم الجوزية فيما يتعلق بالسلوك موضوع معاملة الإنسان للآخرين حيث خصص فصولا لذلك بين فيها أهمية حسن معاملة الآخرين، والتجاوز عن إساءتهم والإحسان إليهم والتواضع لهم وما يقابل ذلك من جزاء من الله تعالى، فقد قال في هذا المعنى: "ومنها أن يعامل العبد بني جنسه في إساءتهم إليه وزلاتهم معه بما يحب أن يعامله الله به في إساءته وزلاته وذنوبه فإن الجزاء من جنس العمل؛ فمن عفا عفي الله عنه ومن سامح أخاه في إساءته إليه سامحه الله في سيئاته... فمن أحب أن يقابل الله إساءته بالإحسان فليقابل هو إساءة الناس إليه بالإحسان"[156].

أن أشرف ما في الإنسان محل العلم منه وهو قلبه وسمعه وبصره. ولما كان القلب هو محل العلم والسمع رسوله الذي يأتيه به والعين طليعته كان ملكا على سائر الأعضاء يأمرها فتأتمر لأمره ويصرفها فتنقاد له طائعة بما خص به من العلم دونها فلذلك كان ملكها والمطاع فيها وهكذا العلم في الناس كالقلب في الأعضاء

وكما اهتم ابن القيم بالأخلاق الحسنة وتأثيرها في العلاقات بين الناس وفي سلوكهم بصفة عامة، لم يغفل الحديث أيضا عن السلوك العدواني الذي يقوم به الآخرون وكيفية تأثيره في سلوك الآخرين، وعن ضرورة مواجهته كما ينبغي؛ وقد خصص فصلا لذلك حيث قال: "ومنها أن القلب يكون ذاهلا فإذا أصابه سهم من عدوه استجمعت له قوته وحاسته وحميته وطلب بثأره إن كان قلبه حرا كريما...فما شيء أشفى للقلب من أخذه بثأره من عدوه ولا عدو أعدى له من الشيطان"[157].

بالسمع تنال سعادة الدنيا والآخرة؛ لأنه من لا سمع له لا يعلم ما جاء به الرسل من هداية

ومن المواضيع التي تطرق إليها ابن القيم وهي ذات علاقة بالعلاقات الإنسانية موضوع الانشغال بعيوب النفس عن عيوب الآخرين؛ فأكد على ضرورة الإمساك عن عيوب الناس والتفكر فيها فقال: "فطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس وويل لمن ينسى عيبه وتفرغ لعيوب الناس هذا من علامات الشقاوة كما أن الأول من أمارات السعادة"[158].

إن مدركات السمع أعم من مدركات البصر؛ فهو أي السمع يدرك الكليات والجزئيات والشاهد والغائب والموجود والمعدوم والبصر لا يدرك إلا بعض المشاهدات، والسمع يسمع كل علم

وهذا الموضوع في حاجة إلى متابعة ومناقشة أعمق ليس هنا مجالها. ويكفي أن نشير إلى أهمية ربط ابن القيم بين الشعور بالسعادة أو الشقاوة وبين الانشغال بعيوب الناس؛ فهذا الربط دليل التعمق في فهم الارتباط الوثيق بين الجانب السلوكي والجانب الوجداني، وواقع تبادل التأثر والتأثير بينهما.

ومن المواضيع الهامة المرتبطة بالبعد الاجتماعي للسلوك موضوع الظلم والعدوان.

- الظلـــــم والعـــــــدوان

ليس العدوان عند ابن القيم هو الاعتداء على الناس وسلبهم حقوقهم فقط بل هو "تعدي حدود الله التي قال فيها: **تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون.** وقال في موضع آخر: **تلك حدود الله فلا تقربوها.** فنهى عن تعديها في آية وعن قربانها في آية. وهذا لأن حدوده سبحانه هي النهايات الفاصلة بين الحلال والحرام"[159].

وقد بين ابن القيم أن العدوان نوعان: عدوان في حق الله وعدوان في حق العبد، وأكد أيضا أن الإثم والعدوان قرينان لقوله تعالى: **وتعاونوا على البر**

والتقوى ولاتعاونوا على الإثم والعدوان. وعليه، فكل إثم عدوان وكل عدوان إثم. والإثم هو كل محرم الجنس كالكذب والزنا وشرب الخمر، والعدوان هو كل ما كان محرم القدر والزيادة كالاعتداء في أخذ الحق ممن هو عليه"[160].

وقد جعل ابن القيم في موضع آخر العدوان نمطا من أنماط الشخصية التي تنحط إلى المستوى الحيواني حيث وصف هذه النفس بقوله: "ومنهم من نفسه سبعية غضبية همته العدوان على الناس وقهرهم بما وصلت إليه قدرته، طبيعته تتقاضى ذلك كتقاضي طبيعة السبع لما يصدر منه"[161].

ولاشك أن الإنسان مسؤول على عدوانيته وظلمه وإثمه كما هو مسؤول عن بقية أفعاله وإن كانت صادرة عن طبع أو تأثير الوراثة (الجينات)؛ وذلك لما يتمتع به من عقل وإدارك وإرادة. والدليل على ذلك رفع القلم أو المسؤولية عن الطفل حتى يبلغ والمجنون حتى يشفى والمغمي عليه حتى يفيق.

لليقين مراتب أولها السمع وأعلاها عين اليقين

السلـــــــوك والإرادة

ومن القضايا الهامة أيضا التي تطرق إليها ابن قيم الجوزية فيما يتعلق بالسلوك، ارتباط العمل بالعلم، وارتباط العمل بالإرادة والحرية؛ فهو يرى أن للنفس قوتان: علمية وعملية، وأن عمل الإنسان اختياري أي تابع لإرادة العبد، ولكل إرادة مراد؛ والمراد إما يكون مرادا لنفسه أو مرادا لغيره ولكنه ينتهي إلى المراد لنفسه.

الصواب أن كلا منهما له خاصية فضل بها الآخر فالمدرك بالسمع أعم وأشمل والمدرك بالبصر أتم وأكمل فالسمع له العموم والشمول والبصر له الظهور والتمام وكمال الإدراك

وقد أكد ابن القيم ضرورة تعلق إرادة العبد بإرادة الله وحبه؛ وهذا ما يحقق عنده كمال النفس الذي يتم بالإرادة والعلم والعمل والمحبة والخوف والرجاء. وقد أوضح نفسه أنه قد خالف بهذا الرأي موقف الفلاسفة من كمال النفس، الذي يتحقق عندهم بتعديل الشهوة والغضب والعلم المجرد[162]. وقد أكد ابن القيم دور الإرادة في بلورة السلوك بل جعل الإرادة أصل الأفعال الصادرة عن الشخص، وأصل قيمة السلوك.

وعليه، فإن هذا الأصل هو الذي يحدد فيما إذا كان السلوك الظاهري مطابقا للسلوك الباطني أم لا. وهل السلوك الظاهري صادر عن النفس الأمارة بالسوء أم صادر عن النفس المطمئنة. وقد أوضح ابن القيم هذه الفكرة في قوله: "فإن

الأفعال تصدر عن الإرادات وتظهر على الأركان من النفسين الأمارة والمطمئنة فيتباين الفعلان في البطلان ويشتبهان في الظاهر ولذلك أمثلة كثيرة منها المداراة والمداهنة فالأول من المطمئنة والثاني من الأمارة، وخشوع الإيمان وخشوع النفاق، وشرف النفس والتيه، والحيمة والجفاء، والتواضع والمهانة...والمنافسة والحسد..."[163].

من أعجب النعم عليه نعمة النسيان فإنه لولا النسيان لما سلا شيئا ولا انقضت له حسرة ولا تعزى عن مصيبة ولا مات له حزن ولا بطل له حقد ولا تمتع بشيء من متاع الدنيا مع تذكر الآفات ولا رجا غفلة عدو ولا نقمة من حاسد

السلـــــوك والأسبـــــاب

يعتبر ابن القيم من الداعين للأخذ بالأسباب وعدم التواكل في العبادة والسلوك بصفة عامة. وقد ناقش الجبرية والقدرية في هذا الموضوع في كتابه "مدارج السالكين..." مثلا.

وقد انتهى في مناقشته لهؤلاء فيما يتعلق بالأخذ بالأسباب وعلاقة ذلك بالتوحيد إلى قوله: "وبالجملة فليس إسقاط الأسباب من التوحيد بل القيام بها واعتبارها وإنزالها في منازلها التي أنزلها الله فيها هو محض التوحيد والعبودية والقول بإسقاط الأسباب هو توحيد القدرية والجبرية..."[164].

وقد ميز ابن القيم بين التوكل والتواكل في كتابه "مدارج السالكين" مستندا في ذلك إلى النصوص الصريحة في القرآن الكريم والحديث الشريف، وعملا بقوله صلى الله عليه وسلم: "...اعقلها وتوكل".

من الآثار القبيحة المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله، فمنها حرمان العلم فإن العلم نور يقذفه الله في القلب والمعصية تطفيء ذلك النور

وعليه، فلكل سلوك سبب معين سواء عرفناه أم جهلناه. ومن المطلوب البحث عن هذه الأسباب ودراستها دراسة علمية لشرحها ووصفها أو حتى للتنبؤ بها أحيانا. ولايخفى ما لهذه العمليات (الشرح والتفسير والتنبؤ) من فائدة تربوية وسلوكية وعلمية خاصة إذا حدث تراكم لهذه العمليات في ميدان سلوكي ما كعلم النفس والتربية والاجتماع والاقتصاد وغير ذلك من العلوم السلوكية التي يساعدنا تقدمها على تطوير افراد والجماعات والمنظمات بل وحتى المجتمعات.

السلـــــوك والتربيـــــة

ومن الجوانب السلوكية الهامة التي لها علاقة بالتربية والسلوك والتي أولاها ابن القيم عناية خاصة موضوع تربية الأطفال حيث خصص كتابا لذلك تحت عنوان "تحفة المولود". وقد تناول خاصة في الباب السادس عشر من هذا الكتاب "فصولا نافعة في تربية الأطفال تحمد عقباها عند الكبر".

ومن هذه الفصول فصل في الرضاعة، وفصل في التغذية، وفصل في تدريب الطفل على النطق، وفصل في أهمية البكاء من الناحية الفسيولوجية وفوائده، وفصل في تمرين وتدريب الطفل على الحركة، وفصل في وقاية الطفل من الأمور المفزعة كالأصوات الشديدة والمناظر المزعجة لما لذلك من تأثير سلبي على القوة العاقلة عند الطفل، وشرح ابن القيم علاج الطفل عند تعرضه لمثل هذه الأمور السلبية ثم خصص فصلا لفطام الطفل حيث ذكر أن مدة الرضاعة الكاملة سنتان كاملتان مصداقا لقوله تعالى: "والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة..." (البقرة، 233).

القلب معدن العقل. القلب منشأ العقل، وفي الرأس فروعه وثمرته

وقد ركز ابن القيم بعد ذلك على ضرورة التدرج في الفطام؛ وهذه قضية تربوية هامة إذ أن مفاجأة الطفل بالفطام دفعة واحدة قد يفقده الشعور بالأمان والاطمئنان؛ وبالتالي يفقده الثقة في نفسه والثقة فيمن حوله من الأهل والأقارب.

هناك علاقة بين وظائف الدماغ والظروف الطبيعية المحيطة بالإنسان وبحالته الوجدانية وبحالته الجسمية

ومن الفصول الهامة أيضا في هذا الباب تربية الطفل على أخلاق حميدة؛ إذ أن الطفل كما قال ابن القيم: "ينشأ على ما عوده المربي في صغره من حرد وغضب ولجاج وعجلة وخفة مع هواه وطيش وحدة وجشع فيصعب عليه في كبره تلافي ذلك وتصير هذه الأخلاط صفات وهيئات راسخة..."[165].

لاحظ أن ابن القيم لم يقل باستحالة تعديل وتقويم الأخلاق السلبية بل أشار فقط إلى صعوبة ذلك لرسوخها في ذاكرة وشخصية الإنسان منذ الصغر. وهذا يدلنا دلالة واضحة على أهمية السنوات الأولى من العمر وخاصة على قابلية الطفل على تعلم العادات الحميدة وترسيخها في سلوكه في هذه المراحل الأولى من العمر.

وكما اعتنى ابن القيم بمرحلة الطفولة، فإنه لم يهمل مرحلة الرشد التي حددها بالبلوغ عند كل من الذكر والأنثى. وقد أشار إلى ضرورة وقاية الصبي عند دخوله هذه المرحلة من مجالس السوء حتى لا يتأثر بها. وقد قال في هذا المعنى: "وكذلك يجب أن يتجنب الصبي إذا عقل مجالس اللهو والباطل والغناء وسماع الفحش والبدع ومنطق السوء فإنه إذا علق بسمعه عسر عليه مفارقته عند الكبر وعز على وليه استنقاذه منه، فتغيير العوائد من أصعب الأمور يحتاج صاحبه إلى استجداء طبيعة ثانية. والخروج عن حكم الطبيعة عسر جدا.."[166].

فالرشد في الثقافة الإسلامية عملية بيولوجية البلوغ) وعقلية (النضج العقلي) واجتماعية (الاعتراف بمكانة راقية للراشد). ولعل هذا ما يؤدي إلى تخفيف ضغوط المراهقة على الفتيان والفتيات في إطار هذه الثقافة كما يلاحظ في البوادي والأرياف بالبلدان الاسلامية حيث تندر أنواع السلوك السلبية المرتبطة بمرحلة المراهقة الملاحظة في المدن الكبيرة حيث يتأخر سن الزواج وسن الرشد القانوني إلى سن 18 أو 21 سنة.

الدين هو الطاعة والعبادة والخلق؛ ولذا فسر الخلق بالدين في قوله تعالى: "وإنك لعلى خلق عظيم

ولاشك، أن هذه النقطة في حاجة إلى بحوث مقارنة لاستكشاف الجوانب السلبية والايجابية لهذا الموضوع (سن الرشد وارتباطه بالبلوغ).

وركز ابن القيم في تربية الراشد أيضا على الأخلاق الحميدة وعلى حب العمل والجد والكدح وتجنب الكسل والبطالة والدعة إذ أن المجد والسعادة لا ينالهما الشخص دون تعب وجد، وقد قال ابن القيم في هذا المعنى متحدثا عن كيفة التعامل مع الراشد أو الفتى الذي دخل مرحلة المراهقة: "...ويجنبه الكسل والبطالة والدعة والراحة بل يأخذه باضدادها ولا يريحه إلا بما يجم نفسه وبدنه للشغل فإن للكسل والبطالة عواقب سوء ومغبة ندم، وللجد والتعب عواقب حميدة إما في الدنيا وإما في العقبى وإما فيهما...فالسيادة في الدنيا والسعادة في العقبى لا يوصل إليها إلا على جسر التعب..."[167].

فأصل العبادة محبة الله بل إفراده بالمحبة وأن يكون الحب كله لله فلا يحب معه سواه وإنما يحب لأجله وفيه..

ومن القضايا الهامة التي عرضها ابن القيم في كتابه المشار غليه أعلاه قضية التوجيه التربوي والمهني للراشد بناءا على قدراته واستعداداته وليس بناءا على رغبة الأولياء والآباء التي قد لاتتوافق مع رغبات وقدرات أبنائهم وبناتهم الجسمية والعقلية؛ فتجد بعضهم يجبر أبناءه وبناته على متابعة اختصاصات معينة أو مهن ما دون اعتبار لاستعداداتهم وقدراتهم مما ينعكس سلبا في أغلب الأحيان على تحصيل الأبناء بل وفشلهم في تحصيل العلم والمعرفة مما يعرضهم لاحقا إلى الفشل في ميادين الشغل.

ومما قاله ابن القيم بهذا الصدد: "ومما ينبغي أن يعتمد حال الصبي وما هو مستعد له من الأعمال ومهيأ له منها فيعلم أنه مخلوق له فلا يحمله على غيره ما كان مأذونا فيه شرعا فإنه إن حمله على غير ما هو مستعد له لم يفلح فيه...فإذا

رآه حسن الفهم صحيح الإدراك جيد الحفظ واعيا فهذه من علامات قبلوه...وإن رآه بخلاف ذلك من كل وجه وهو مستعد للفروسية وأسبابها...مكنه من أسباب الفروسية...وإن رآه بخلاف ذلك...ورأى عينه مفتوحة إلى صنعة من الصنائع مستعدا لها...فليمكنه منها. هذا كله بعد تعليمه له ما يحتاج إليه في دينه..."[168].

إذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرها فهي إنما تتحقق باتباع أمره واجتناب نهيه فعند ابتاع الأمر واجتناب النهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة

إن ماقرره ابن القيم منذ قرون هو نفسه أساس ما يقوم عليه التوجيه التربوي والمهني الحديث؛ إذ غالبا ما يمر الطفل بمرحلة من التعليم الأساسي ثم يوجه إما إلى ميادين التخصصات العلمية أو إلى الصنائع والمهن وإما إلى العسكرية وقطاع الخدمات المختلفة.

وقد رأينا حالات كثيرة من الطلاب الذين فشلوا في دراساتهم الجامعية بسبب سوء التوجيه المدرسي أو بسبب ضغوط العائلة أو ضغوط المجتمع أو سوق العمل؛ هذه الضغوط التي غالبا ما ترغمهم بصفة مباشرة أو غير مباشرة إلى اختيار اختصاصات أو مهن لايرغبون فيها أصلا أو ليس لديهم القدرات العقلية على النجاح فيها.

الحسنة وهي العمل الصالح والنافع لها انعكاس إيجابي في الوجه (البدن) وفي القلب (الروح) وفي الجانب المادي (الرزق) وفي السلوك (التفاعل مع الآخرين)

وفي الواقع، فإن كتاب "تحفة المولود" سجل غني بالنصائح التربوية الرائعة التي أسداها ابن القيم للأبناء منطلقا في ذلك من النصوص الشرعية وتجربته الشخصية والمعلومات الطبية والتربوية السائدة في عصره. ولم يقتصر الكتاب على تقديم نصائح أخلاقية من الناحية النظرية بل اشتمل على توجيهات تطبيقية لاعداد الصبيان والفتيان للتخصصات العلمية وللحياة المهنية والعملية بصفة عامة.

ونظرا لأهمية الأخلاق في العملية التربوية بصفة خاصة وفي السلوك بصفة عامة، أتطرق فيما يأتي إلى أسسها وتصوراتها في فكر ابن القيم لما لهذا الموضوع من أهمية في بلورة شخصية الإنسان وعلاقاتها بالآخرين.

العلم والأخلاق والسلوك

أقام ابن القيم الجوزية علاقة قوية بين العلم والأخلاق وكل أنواع السلوك؛ فاعتبر الأخلاق الكريمة وما يرتبط بها من سلوك إيجابي حميد ثمرة شجرة العلم، والأخلاق السيئة وما يرتبط بها من سلوك سلبي خبيث ثمرة شجرة الجهل، وأكد

أن "كل صفة مدح الله بها العبد في القرآن فهي ثمرة العلم ونتيجته وكل ذم ذمه فهو ثمرة الجهل ونتيجته فمدحه بالإيمان وهو رأس العلم ولبه ومدحه بالعمل الصالح الذي هو ثمرة العلم النافع ومدحه بالشكر والصبر والمسارعة في الخيرات...وأما شجرة الجهل فتثمر كل ثمرة قبيحة من الكفر والفساد والشرك والظلم والبغي والعدوان والجزع والهلع والكنود والعجلة والطيش والحد والفحش والبخل..."[169].

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: "إن للحسنة ضياء في الوجه ونورا في القلب وقوة في البدن وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الخلق وأن للسيئة سوادا في الوجه وظلمة في القلب ووهنا في البدن ونقصا في الرزق وبغضة في قلوب الخلق

وقد جعل ابن القيم العلم والعمل به أساس الفعل الصادر عن الإيمان واعتبر الجهاد مراتب. وأعلى هذه المراتب جهاد النفس ويليه جهاد الشيطان ويتبعه جهاد الكفار ثم جهاد المنافقين. وأوضح أيضا أن جهاد النفس أربع مراتب، وتقوم على تعلم الدين والعمل به وتعليم الدين للآخرين والصبر على مشاق الدعوة إلى الله وتحمل أذى الخلق في ذلك. وقد قال بهذا الصدد: "وأكمل الخلق عند الله من كمل مراتب الجهاد كلها والخلق متفاوتون في منازلهم عند الله تفاوتهم في مراتب الجهاد ولهذا فإن أكمل الخلق وأكرمهم عند الله خاتم أنبيائه ورسله..."[170].

وكما أن للعلم والأخلاق ومراتب الجهاد دورا في بلورة السلوك المحمود، فإن للانفعالات الايجابية مثل الحياء دورا في ذلك أيضا حيث ربط ابن القيم مثلا بين الحياء كخلق عظيم والسلوك.

أن التفكر أساس العلم النافع، والعمل النافع هو أساس العمل الصالح

دور الحيـــاء فـــي السلـــــوك

أقام ابن قيم الجوزية علاقة بين "الحياء" والسلوك وإن لم يتعرض لموضوع الحياء من الناحية الوجدانية. واعتبر هذا الخلق من أفضل الأخلاق وأعظمها قدرا وأكثرها نفعا؛ وقد خص به الإنسان دون جميع الحيوان بل هو "**خاصية الإنسانية**".

وليس لمن لا حياء له من الإنسانية إلا اللحم والدم وصورتهما الظاهرة، وليس له من الخير شيء. وقال مبينا تأثير هذا الخلق في السلوك: "ولولا هذا الخلق لم يقر الضيف ولو يوف بالوعد ولم تؤد أمانة ولم يقض لأحد حاجة ...وكثير من الناس لولا الحياء الذي فيه لم يؤد شيئا من الأمور المعترضة عليه...فإن الباعث على هذه الأفعال إما ديني وهو رجاء عاقبتها الحميدة وإما دنيوي علوي وهو

حياء فاعلها من الخلق فقد تبين أنه لولا الحياء إما من الخالق أو من الخلائق لم يفعلها صاحبها"[171].

ومن الجدير بالتأمل اعتبار ابن القيم الحياء دافعا أو حافزا خارجيا للسلوك حيث اعتبره **باعثا للأفعال**؛ ويعود إما لدافع ديني وهو رجاء الحسنة والثواب أو دافع دنيوي وهو تفادي الانعكاسات السلبية التي قد تلحق الشخص عند تعامله مع الآخرين وتفاعله معهم إذا هو لم يلتزم بقواعد السلوك المتعارف عليها في إطار اجتماعي معين. وعليه، فالأخلاق في فكر ابن القيم ليس شيئا نظريا مجردا بل هي فعل وسلوك. وسيتبين ذها أكثر عند استعراض مفهوم الأخلاق عند ابن القيم وعلاقتها بالسلوك رغم التناقض أو التنافر الذي يحدث أحيانا بين الأخلاق والسلوك .

"..فإذا عدمت النية كان العمل عاديا لاعباديا والعادات لا يتقرب بها إلى باريء البريات وفاطر المخلوقات. فإذا عري العمل عن النية كان كالأكل والشرب والنوم الحيواني البهيمي الذي لايكون عبادة بوجه فضلا أن يؤمر به ويرتب عليه الثواب والعقاب والمدح والذم

- تعريف الأخلاق وعلاقتها بالسلوك

عرف ابن القيم الخلق بأنه "هيئة مركبة من علوم صادقة وإرادات زكية وأعمال ظاهرة وباطنة موافقة للعدل والحكمة والمصلحة وأقوال مطابقة للحق تصدر تلك الأقوال والأعمال عن تلك العلوم والإرادات فتكسب النفس بها أخلاقا هي أزكي الأخلاق"[172].

ولكن الأفعال ليست دائما مطابقة للأخلاق بل وحتى للعلوم والإرادات إذ قد يحدث تنافر بين العلوم والإرادات من جهة والأخلاق من جهة أخرى، كما يحدث تنافر بين الأخلاق والأفعال وهذا ما يسمى في علم النفس الحديث "التنافر المعرفي".

وقد أشار ابن القيم نفسه إلى هذه الظاهرة الملاحظة على مستوى العلاقات الإنسانية وعلى مستوى السلوك بصفة عامة. وقد أرجع ابن القيم هذا التنافر إلى "مقتضى الطباع البشرية" وما يقترن بها من أسباب التنافس والتحاسد والانقياد لدواعي الشهوة والغضب وتعدي الحدود واستعجال اللذات في الدنيا وإيثارها عن اللذات الآجلة في الآخرة"[173].

وفسر ابن القيم هذا التنافر أيضا بوقوع الإنسان في صراع بين دواعي الخير ودواعي الشر؛ فدواعي القلب وميوله كما قال ابن القيم مترددة بين دواعي الخير

ودواعي الشر؛ فهو تارة يميل إلى داعي الخير وتارة أخرى يميل إلى داعي الشر. وأشار ابن القيم أن الله تعالى أرسل الرسل وأنزل الكتب وشرع الشرائع ليتم حكمته في خلقه، وأنه تعالى "أقام سوق الجهاد لما حصل من المعاداة والمنافرة بين الأخلاق والأعمال والإرادات"[174].

وقد أرجع ابن القيم كلا من الأخلاق المحمودة والأخلاق المذمومة إلى أصول؛ فأصل الأخلاق المذمومة كلها الكبر والمهانة والدناءة، وأصل الأخلاق المحمودة كلها الخشوع وعلو الهمة[175].

ولكن كيف يتم التمييز بين النافع والضار من الأمور والأخلاق؟

بين ابن القيم أن التمييز بين النافع والضار من الأمور وخاصة من أنواع السلوك هو أساس الأخلاق. وأكد في هذا المجال أن لكل حي إرادة وعمل بحسب هذه الإرادة، ولكل متحرك غاية يتحرك إليها، ولاصلاح للفرد إلا أن تكون غاية حركته ونهاية مطلبه هو الله وحده. وعليه، فقد قسم ابن القيم المحبة والإرادة إلى نافعة وضارة باعتبار متعلقها ومحبوبها[176].

وكما لكل متحرك غاية وهدف، فإن القصد هام جدا في كل عمل. ولكن القصد مرتبط بدوره بالعلم، وصلاح القصد مرتبط بصلاح العلم وفساده مرتبط بفساد العلم. وإلا فلو علم إنسان مافي الضار من المضرة ولوازمها حقيقة العلم لما اختاره وآثره[177].

فالعلم سبيل الإنسان لمعرفة ما يضره ليتجنبه، ومعرفة ما ينفعه ليحرص عليه مما يساعده على حب النافع وبغض الضار فتكون محبته وكراهته موافقتين لمحبة الله تعالى. ولهذا العلم كما أكد ابن القيم طريقان: العقل والشرع[178].

1- العقل: أوضح ابن القيم أن الله تعالى هو الذي وضع في العقول والفطر استحسان الصدق والعدل والإحسان وكل مكارم الأخلاق، وأنه هو الذي وضع أيضا استقباح أضداد ذلك من الأخلاق. وقد رأى ابن القيم أن نسبة هذا الاستحسان والاستقباح إلى العقول والفطر كنسبة استحسان شرب الماء البارد عند الظمأ، وأكل الطعام اللذيذ النافع عند الجوع، ولبس ما يدفئه عند البرد.

2- الشرع: وفيه قال ابن القيم إنه: أوسع وأبين وأصدق من العقل لخفاء صفات الأفعال وأحوالها ونتائجها.

"ومنها أن القلب يكون خاليا فإذا أصابه سهم من عدوه استجمعت له قوته وحاسته وحميته وطلب بثأره إن كان قلبه حرا كريما...فما شيء أشفى للقلب من أخذه بثأره من عدوه ولا عدو أعدى له من الشيطان

فطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس وويل لمن ينسى عيبه وتفرغ لعيوب الناس هذا من علامات الشقاوة كما أن الأول من أمارات السعادة

وإذا كان الشرع طريقا من طرق العلم التي لا ريب فيها للتمييز بين الضار والنافع والخير والشر كما هو واضح في الشريعة الإسلامية مثلا فإن العقل الذي أشار إليه ابن القيم كطريق من طرق التمييز على أساس الفطرة التي فطره الله عليها قد لا يكون بهذه البساطة التي اقترحها ابن القيم في هذا المقام؛ ذلك لأن العقل وإن كان فيه جانب فطري ولاشك إلا أن الجانب المكتسب فيه يتأثر بالبيئة والمحيط الاجتماعي والثقافي الذي ينمو وينشأ فيه إلى حد بعيد.

وعليه، فالأخلاق وإن كان لها أساس فطري أو جبلي كما يسميه ابن القيم في أماكن أخرى من كتبه إلا أن الأسس البيئية والاجتماعية والثقافية للأخلاق لا يمكن إنكارها بل إن ابن القيم نفسه لم يهمل الإشارة إلى ذلك كما سنرى بعد قليل، وذكر عوامل كثيرة ذات تأثير في الأخلاق والسلوك.

ونظرا لاختلاف هذه الأسس نجد اختلافا في المعايير السلوكية وتباينا في أنماط القيم السائدة في مختلف المجتمعات كما نلاحظ أن الأخلاق وما يرتبط بها من سلوكات تتغير حسب ما يلحق المجتمعات من التغيرات وإن كان التغير في المجال الأخلاقي تغيرا بطيئا وليس سهلا.

وقد وصف ابن القيم نفسه صعوبة تغيير الأخلاق عندما قال: "فإن أصعب ما على الطبيعة الإنسانية: تغيير الأخلاق التي طبعت النفوس عليها وأصحاب الرياضات الصعبة والمجاهدات الشاقة إنما عملوا عليها ولم يظفر أكثرهم بتبديلها..."[179].

ولكن ابن القيم لم يستبعد تماما إمكانية تغيير الأخلاق الجبلية سواء كانت حميدة أم ذميمة عن طريق المعاشرة والمخالطة والتعلم حيث قال في ذلك: "...ولكن صاحب الصورة والخلقة المعتدلة يكتسب بالمقارنة والمعاشرة أخلاق من يقارنه ويعاشره ولو أنه من الحيوان البهيم فيصير من أخبث الناس أخلاقا وأفعالا وتعود له تلك طباعا ويتعذر أو يتعسر عليه الانتقال عنها، وكذلك صاحب الخلقة والصورة المنحرفة عن الاعتدال يكتسب بصحبة الكاملين بخلطتهم أخلاقا وأفعالا شريفة تصير له كالطبيعة فإن العوائد والمزاولات تعطي الملكات والأخلاق"[180].

وفي الواقع، فإن الأخلاق لا تتأثر فقط بالبعد الثقافي والاجتماعي والمعاشرة

إذ أن الطفل كما قال ابن القيم: "ينشأ على ما عوده المربي في صغره من حرد وغضب ولجاج وعجلة وخفة مع سواه وطيش وحدة وجشع فيصعب عليه في كبره تلافي ذلك وتصير هذه الأخلاط صفات وهيئات راسخة.

كذلك يجب أن يتجنب الصبي إذا عقل مجالس اللهو والباطل والغناء وسماع الفحش والبذع ومنطق السوء فإنه إذا علق بسمعه عسر عليه مفارقته عند الكبر وعز على وليه استنقاذه منه

والمقارنة بل وبالبيئة الطبيعية التي يعيش فيه الشخص أي أن للمناخ والطقس وغيرهما تأثيرا في الأخلاق والسلوك. ومن اللطيف أن ابن القيم قد أشار وبوضوح إلى ذلك أيضا عندما قال: "...وهذا ونحوه يدل على أن الأمور وغيرها إنما هي بحسب اختلاف **العوائد والبلاد وخواص الأنفس واختلاف الأسنان** (الأعمار) **والأغذية وقواها** أيضا مما فيها تأثير قوي وكذا **الهواء والتربة واللباس** وغيرها. كل هذه لها تأثير في الأخلاق والأعمال، وأكبرها العوائد والمربا والمنشأ..."[181].

تغيير العوائد من أصعب الأمور يحتاج صاحبه إلى استجداء طبيعة ثانية. والخروج عن حكم الطبيعة عسر جدا..

وأخيرا، فإنه ونظرا للإشارات العديدة والمتكررة في هذه الدراسة إلى ارتباط الجانب السلوكي بالجوانب الأخرى من جوانب شخصية الإنسان في عدة مواضع من هذه الدراسة؛ فإنني أكتفي بهذا القدر من الأمثلة والنماذج من فكر ابن القيم في هذا الجانب علما بأنني قد أوضحت عدة مرات أن تصور ابن القيم في دراسته لمختلف الجوانب الإنسانية من جسم وروح ووجدان وعقل وسلوك قائم على التصور المتكاملي لهذه الجوانب وإن لم يشر هو نفسه إلى ذلك إشارة واضحة حسب اطلاعي المتواضع على إنتاجه الفكري.

إن للكسل والبطالة عواقب سوء ومغبة ندم، وللجد والتعب عواقب حميدة إما في الدنيا وإما في العقبى وإما فيهما...فالسيادة في الدنيا والسعادة في العقبى لا يوصل إليها إلا على جسر التعب..

ومما يعزز هذا الاستنتاج، أن هذا التصور التكاملي واضح في القرآن الكريم والحديث الشريف، وفي فكر العلماء المسلمين البارزين في مجال الفكر والطب والأخلاق والزهد كما نجد ذلك عند المحاسبي وأبي زيد البلخي ومسكويه والغزالي وغيرهم من العلماء الذين درست إنتاجهم الفكري المتعلق بالإنسان في دراسات أخرى.

وأخيرا، فإن الموضوع قابل للمزيد من البحث والتمحيص والمناقشة، وتعدد الآراء والمناهج بهدف خدمة الفكر الإسلامي من جهة وترقية حال الأمة الإسلامية من جهة أخرى في كافة المجالات. ومهما يكن، فبالإمكان إيراد أهم أفكار ابن القيم في الجانب السلوكي حسب النموذج المرسوم في هذه الدراسة في الخلاصة التالية.

خلاصة البعد السلوكي

- للسلوك بعدان: فردي وجماعي.

اعتبر الجهاد مراتب. وأعلى هذه المراتب جهاد النفس ويليه جهاد الشيطان ويتبعه جهاد الكفار ثم جهاد المنافقين

- المحبة أصل كل فعل.
- المحبة أصل كل دين.
- الأفعال صادرة عن الإرادة.
- للحياء دور أساسي في السلوك بوصفه باعثا للأفعال.
- الأخلاق الكريمة ثمرة شجرة العلم، والأخلاق السيئة ثمرة شجرة الجهل.
- الانشغال بعيوب الآخرين ينسي عيوب النفس.
- طباع النفس مختلفة وكذلك تأثيراتها في السلوك (الفروق الفردية).
- ارتباط العلم بالعمل والإرادة والحرية (الاختيار).
- العلم والعمل أساسا التفاضل بين الناس في مراتب الكمال.
- أهمية الفراسة والذكاء في فهم المشكلات السلوكية وإيجاد الحلول لها.

أن جهاد النفس أربع مراتب، وتقوم على تعلم الدين والعمل به وتعليم الدين للآخرين والصبر على مشاق الدعوة إلى الله وتحمل أذى الخلق في ذلك

ملمح الإنسان في فكر ابن القيم

بعد هذا العرض لمختلف جوانب شخصية الإنسان من مختلف الأبعاد حسب النموذج المذكور أعلاه، يمكن للقارىء أن يتساءل: هل قدم ابن القيم ملمحا متكاملا لشخصية الإنسان؟

والجواب أنه لم يكن من اهتمامات ابن قيم الجوزية دراسة خصائص الإنسان وتقديم ملمح عنه كموضوع مستقل بل إن ما كتبه ابن القيم فيما يتصل بمختلف جوانب وأبعاد الإنسان التي تمت الإشارة إليها حسب النموذج المذكور أعلاه عبارة عن مواضيع مبثوثة في مختلف كتبه التي تناولت بالأساس كيفية تربية الإنسان وتهذيبه وترقيته بالعلم والعمل الصالح.

أرجع ابن القيم كلا من الأخلاق المحمودة والأخلاق المذمومة إلى أصول؛ فأصل الأخلاق المذمومة كلها الكبر والمهانة والدناءة، وأصل الأخلاق المحمودة كلها الخشوع وعلو الهمة

وقد جعل ابن قيم الجوزية موضوع ترقية الإنسان وتهذيبه روحيا وجسميا وعقليا ووجدانيا وسلوكيا أساس وهدف جهده الذي بذله طيلة حياته. ويتجلى هذا الهدف بوضوح في مقدمة كتابه "مدارج السالكين بين إياك نعبد وإياك نستعين"؛ حيث أوضح أن كمال الإنسان لا يتعلق بترقية الفرد لنفسه فقط بالعلم والعمل بل لا بد أن يكمل ذلك بالإيمان والعمل الصالح لنفسه، وبعمله على ترقية الآخرين ليبلغوا أيضا أعلى درجات الكمال.

وقد قال في هذا المعنى: "ولقد كان كمال الإنسان بالعلم النافع، والعمل الصالح، وهما الهدى ودين الحق، وبتكميله لغيره في هذين الأمرين، كما قال تعالى: والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر (العصر). أقسم سبحانه أن كل واحد خاسر إلا من كمل قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصالح، وكمل غيره بالتوصية بالحق والصبر عليه"[182].

لكل متحرك غاية وهدف، فإن القصد هام جدا في كل عمل. ولكن القصد مرتبط بدوره بالعلم، وصلاح القصد مرتبط بصلاح العلم وفساده مرتبط بفساد العلم

فالكمال في فكر ابن القيم ليس كمالا أنانيا متعلقا بالفرد نفسه فقط، وليس كمالا مجردا من العلم المرتبط بالإيمان والعمل الصالح. والمتمعن في كتب ابن القيم يلاحظ أن الكمال الذي قصده ليس كمالا مطلقا بل هو كمال نسبي، أما الكمال المطلق فلا يبلغه الإنسان كما أكد على ذلك ابن القيم عدة مرات إلا في دار المعاد.

ومن القضايا الهامة التي أبدع فيها ابن القيم إشاراته المتكررة في عدة مواضع إلى تبادل التأثر والتأثير بين مختلف الأبعاد التي تكون الإنسان بالإضافة إلى التركيز على البعد الاجتماعي للفعل أو للسلوك؛ فالعمل الصالح لا يكون لخدمة الفرد فقط بل ولخدمة الجماعة والمجتمع والأمة.

"فإن أصعب ما على الطبيعة الإنسانية: تغيير الأخلاق التي طبعت النفوس عليها وأصحاب الرياضات الصعبة والمجاهدات الشاقة إنما عملوا عليها ولم يظفر أكثرهم بتبديلها

ومهما يكن، فإنني حاولت أن أقدم في نهاية كل جانب من جوانب الإنسان التي درست حسب النموذج المذكور أعلاه أهم ملامح الشخصية الإنسانية حسب فكر ابن القيم. وإني أعترف بصعوبة الإحاطة بكل جهود ابن القيم في هذا المجال في إطار دراسة واحدة حسب نموذج محدد مما يجعلني أدعو غيري من الباحثين والدارسين إلى الاهتمام أكثر بهذه الشخصية العلمية الفذة المتعددة المواهب، واستخراج نماذج وتصورات أخرى لملمح الإنسان في فكر ابن القيم وغيره من العلماء المسلمين لتكون نبراسا لغيرهم من الباحثين والعلماء في مختلف الميادين الفكرية والعلمية، ولتحقيق ما نصبو إليه من تحقيق التكامل بين العلوم الاجتماعية والعلوم الشرعية، ولاجراء المزيد من الدراسات المقارنة بين العلماء المسلمين وغيرهم من علماء الحضارات الأخرى خاصة في مجالات العلوم الاجتماعية.

المحبة أصل كل فعل. المحبة أصل كل دين

وأخيرا، فإن جمع ما تفرق من أفكار وآراء ابن قيم الجوزية عن الإنسان بمختلف أبعاده يقدم للباحث مادة هامة للاستفادة المتعددة الأوجه من الناحيتين:

النظرية والتطبيقية. ولا شك، أن فهم واستيعاب أفكار ابن قيم الجوزية عن الإنسان، وفهمها على ضوء العصر الذي عاشه ابن قيم الجوزية، ومناقشتها على ضوء الاكتشافات الحديثة في مختلف المجالات المرتبطة بالإنسان قد يشكل قاعدة متينة لانطلاق بحوث أكثر عمقا وأصالة لربط الماضي بالحاضر والحاضر بالمستقبل مما يغني مجالات العلوم الإنسانية في العالم الإسلامي.

الأخلاق الكريمة ثمرة شجرة العلم، والأخلاق السيئة ثمرة شجرة الجهل

ولاشك أن عملية دراسة التراث الإسلامي ومناقشته مناقشة موضوعية نزيهة، تشكل جسرا قويا لربط العملية التربوية بالبحث العلمي الضارب في جذور التاريخ، والمتطلع لآفاق المستقبل الرحب؛ وهذا يتطلب العناية الفائقة بالعلوم الإنسانية دون إهمال علاقتها بالعلوم الشرعية والعلوم الطبيعية تدريسا وبحثا، كما ينبغي توجيهها لخدمة الإنسان وتربيته وتهذيبه وترقيته بكل أبعاده الروحية والجسمية والعقلية والوجدانية والسلوكية.

ارتباط العلم بالعمل والإرادة والحرية (الاختيار).
العلم والعمل أساسا التفاضل بين الناس في مراتب الكمال

ولن تتحقق هذه المهمة النبيلة إلا إذا قامت على العمل الجاد والدؤوب، وعلى التعاون بين مختلف الباحثين والعلماء في شتى المجالات وخاصة تلك المرتبطة بمختلف أبعاد الإنسان التي ينبغي أن ينظر إليها –مهما تعددت الاختصاصات وتشعبت– على أنها أبعاد متكاملة ومتفاعلة تشكل في مجموعها ما نسميه "الإنسان" بمختلف قواه ونقائصه، وبمختلف أطره التاريخية والحضارية والثقافية التي صهرته عبر التاريخ، والتي يعيش فيها ويتفاعل معها في الحاضر، والتي يخطط لها ويهدف إليها في مستقبله.

كمال الإنسان لا يتعلق بترقية الفرد لنفسه فقط بالعلم والعمل بل لا بد أن يكمل ذلك بالإيمان والعمل الصالح لنفسه، وبعمله على ترقية الآخرين ليبلغوا أيضا أعلى درجات الكمال

وإلى الآن، لم يتحقق ردم الهوة بين مناهج العلوم الشرعية ومناهج العلوم الاجتماعية في إطار نسق علمي وعملي تتكامل فيه المناهج القائمة أساسا على الاستنباط مع المناهج القائمة أساسا على الاستقراء الناقص رغم أن موضوع دراسة كل من العلوم الشرعية والعلوم الاجتماعية هو الإنسان بأبعاده المختلفة، وعلاقاته المتعددة، وبيئاته المتنوعة[183].

ومن الممتع أن نلاحظ أن ابن قيم الجوزية قد سبقنا إلى هذه الدعوة وتطبيقها منذ قرون إذ أشار إلى ذلك بوضوح في مقدمة كتابه "الطرق الحكمية في السياسة الشرعية"؛ حيث دعا في تلك المقدمة إلى الأخذ بالفراسة والحكم بالأمارات

وإعمال الفكر بالتأمل والنظر قبل إصدار الأحكام، كما دعا إلى الجمع بين فهم الشرع وفهم الواقع حيث قال: "والحاكم إذا لم يكن فقيه النفس في الأمارات ودلائل الحال، ومعرفة شواهده، وفي القرائن الحالية والمقالية، كفقهه في جزئيات وكليات الأحكام؛ أضاع حقوقا كثيرة على أصحابها، وحكم بما يعلم الناس بطلانه، ولا يشكون فيه، اعتمادا منه على نوع ظاهر لم يلتفت إلى باطنه وقرائن أحواله. فههنا نوعان من الفقه، لابد للحاكم منهما: فقه في أحكام الحوادث الكلية، وفقه في نفس الواقع وأحوال الناس، يميز به بين الصادق والكاذب، والمحقق والمبطل، ثم يطابق بين هذا وهذا؛ فيعطي الواقع حكمه من الواجب، ولا يجعل الواجب مخالفا للواقع"[184].

وعمليا، فقد طبق ابن قيم الجوزية هذه المنهجية في كتابه "الطرق الحكمية..."؛ حيث أورد أدلة و أمثلة كثيرة على إصدار الأحكام بالاعتماد على الفراسة واستعمال الذكاء وفهم ملابسات القضايا وتحكيم العرف وفهم الواقع واستعمال المنهج الاستقرائي في إيجاد الحلول للمشكلات والقضايا التي تواجه القاضي أو الحاكم دون الإخلال بقواعد الشريعة ومقاصدها. وقد تبعه في هذا المنهج علماء مسلمون آخرون مثل ابن الجوزي في كتابه "الأذكياء" والشاطبي في كتابه "مقاصد الشريعة".

أن فهم واستيعاب أفكار ابن قيم الجوزية عن الإنسان، وفهمها على ضوء العصر الذي عاشه ابن قيم الجوزية، ومناقشتها على ضوء الاكتشافات الحديثة في مختلف المجالات المرتبطة بالإنسان قد يشكل قاعدة متينة لانطلاق بحوث أكثر عمقا وأصالة لربط الماضي بالحاضر والحاضر بالمستقبل مما يغني مجالات العلوم الإنسانية في العالم الإسلامي

المراجـــــع

- ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، ط27، مؤسسة الرسالة، مكتبة المنار الاسلامية، الكويت: 1414هج-1994.

- ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت: بدون تاريخ.

- ابن قيم الجوزية: طريق الهجرتين وباب السعادتين، ط2، دار الطباعة المحمدية، القاهرة: 1399-1979.

- ابن قيم الجوزية: أعلام الموقعين عن رب العالمين، راجعه وقد له وعلق عليه: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت: 1973.

- ابن قيم الجوزية: مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، تصحيح وتعليق: محمود حسن ربيع، ط3، مكتبة حميدو، الاسكندية: 1399هج-1979.

- ابن قيم الجوزية: الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، بدون تاريخ وبدون دار نشر.

- ابن قيم الجوزية: الروح، تحقيق: بسام علي سلامة العموش، ط2، منشورات دار ابن تيمية للنشر والتوزيع والاعلام، الرياض: 1412هج-1992.

- ابن قيم الجوزية: الداء والدواء، تحقيق: علي بن حسن بن عبد الحميد الحلبي الأثري، ط3، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، الدمام (المملكة العربية السعودية): 1419هج-1999.

- ابن قيم الجوزية: إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان، تحقيق: محمد عفيفي، ج1، ط2، المكتب الإسلامي: بيروت، مكتبة الخاني: الرياض، 1989.

- ابن قيم الجوزية: الفروسية، تحقيق: أبو عبيدة مشهور، دار الأندلس للنشر والتوزيع، حائل (المملكة العربية السعودية): 1414هج-1997.

- ابن قيم الجوزية: الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، تحقيق: محمد حامد الفقس، الرياض: بدون تاريخ.

- ابن كثير اسماعيل القرشي الدمشقي: تفسير ابن كثير، مجلد3، سورة السجدة، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت: 1388هج-1969.

- صلاح شادي: تأملات في كتاب: مدارج السالكين لابن قيم الجوزية، شركة الشعاع للنشر، الكويت: 1400هج.

- عبد العزيز عبد الله الأحمد: الطريق إلى الصحة النفسية عند ابن قيم الجوزية وعلم النفس، دار الفضيلة، الرياض: 1999.

- عبد العظيم عبد السلام شرف الدين: ابن قيم الجوزية: عصره ومنهجه وآراؤه في الفقه والعقائد والتصوف، ط2، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة: 1387هج-1967.

- عبد المنعم صالح العلي العزي: تهذيب مدارج السالكين، ط6، مؤسسة الرسالة، بيروت: 1420هج-2000.

- عثمان نجاتي: القرآن وعلم النفس، ط4، دار الشروق: القاهرة: 1409هج-1989م.

- مصطفى عشوي: تكامل العلوم الاجتماعية والعلوم الشرعية، مجلة "التجديد"، مجلة فصلية محكمة تصدرها الجامعة الاسلامية العالمية بماليزيا، رقم 2، ص: 55-81، 1997.

أن عملية دراسة التراث الإسلامي ومناقشته مناقشة موضوعية نزيهة، تشكل جسرا قويا لربط العملية التربوية بالبحث العلمي الضارب في جذور التاريخ، والمتطلع لآفاق المستقبل الرحب

إلى الآن، لم يتحقق رحم الصوة بين مناهج العلوم الشرعية ومناهج العلوم الاجتماعية في إطار نسق علمي وعملي تتكامل فيه المناهج

- مصطفى عشوي: الطبيعة البشرية من منظور نفسي مقارن، مجلة "إسلامية المعرفة"، مجلة فصلية محكمة يصدرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي، كوالالمبور (ماليزيا)، رقم ، 1997.

- مصطفى عشوي: الإنسان المتكامل في القرآن الكريم، محاضرة في "المؤتمر العالمي في الإرشاد والعلاج النفسي من منظور إسلامي"، تنظيم: الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، كوالالمبور، 15-17 يوليو، 1997 (بالانكليزية).

• ملاحظة: استعان الباحث في تخريج الأحاديث بالموسوعة الماسية للحديث النبوي وعلومه (عبد اللطيف للمعلومات).

المراجع الأجنبية

- Baron A. R. , Byrne D. Social Psychology, 8th Ed., Allyn and Bacon, Boston, 1997.

Schultz D. , Schultz E. S. Theories of Personality, 5th. Ed., Brooks/Cole Publsihing Comapany, Pacific Grove, California, 1994.

مراجع النص

[1] انظر: مقدمة: طه عبد الرؤوف سعد لكتاب "أعلام الموقعين عن رب العالمين"، دار الجيل، بيروت: 1973.

[2] ابن قيم الجوزية: أعلام الموقعين عن رب العالمين، جزء2، راجعه وقدم له وعلق عليه: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت: 1973. ص:3.

[3] انظر: الطبيعة البشرية من منظور نفسي مقارن، مجلة "إسلامية المعرفة"، مجلة فصلية محكمة يصدرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي، رقم 6، 1997.

[4] الإنسان المتكامل في القرآن الكريم: المؤتمر العالمي في الإرشاد والعلاج النفسي من منظور إسلامي، كوالالمبور – ماليزيا، 15-17 يوليو (1997).

[5] رواه البخاري في كتاب الآداب، رقم الحديث:5665. ورواه مسلم وغيره بألفاظ أخرى.

[6] ابن القيم: زاد المعاد...، ج4، ص19-20.

[7] المرجع السابق، ص.205

[8] ابن القيم: إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ص.68

[9] ابن القيم: مدارج السالكين، ج3، ص.264

[10] ابن القيم: اللفوائد، ص.48

[11] المرجع السابق، ص.206

[12] المرجع السابق، ص.210

[13] المرجع السابق، ص.209

[14] المرجع السابق، ص206-207.

[15] يعود الضمير للإنسان.

[16] المرجع السابق، ص.207

[17] ابن القيم: مفتاح دار السعادة ومنشور ألوية العلم والإرادة، مرجع سابق، ص.114

[18] المرجع السابق، ص.208

[19] المرجع السابق، ص.209

[20] المرجع السابق، ص.211

[192] ابن القيم: الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، مرجع سابق، ص4.

[21] المرجع السابق، ص.211

[22] المرجع السابق، ص.212

[23] المرجع السابق، ص.213

[24] انظر: تفسير ابن كثير القرشي الدمشقي، مجلد3، درا المعرفة للطباعة والنشر، بيروت: 1388-1969، ص: 456.

[25] ابن قيم: إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان، مرجع سابق، ص.24

[26] ن قيم: زاد المعاد في هدي خير العباد، ص6.

[27] المرجع السابق، ص.7

[28] المرجع السابق، ص8

[29] المرجع السابق، ص.8

[30] المرجع السابق، ص.9

[31] المرجع السابق، ص.17

[32] المرجع السابق، ص.10

[33] إريك فروم (1900-1980): عالم نفس يهودي، ولد في ألمانيا وهاجر إلى الولايات المتحدة سنة 1934، وتوفي في سويسرا سنة 1980. وهو وإن كان من أتباع مدرسة التحليل النفسي إلا أنه خالف فرويد في كثير من المفاهيم والتصورات حول الإنسان. انظر:

Schultz D. & Schultz E. S. Theories of Personality, Brooks/Cole Publishing Co., Pacific Grove, 1994.

[34] بن القيم: زاد المعاد، مرجع سابق، ص.18

[35] رواه الترمذي، رقم الحديث: 2799. قال أبو عيسى: حديث غريب.

[36] ابن القيم: زاد المعاد، مرجع سابق، ص19.

[*] لفظ يوناني بمعنى: الأصل (انظر تعليق المحقق، ص19).

[37] المرجع السابق، ص21-22.

[38] ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين بين إياك نعبد وإياك نستعين"، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت: بدون تاريخ.

[39] ابن قيم الجوزية: طريق الهجرتين وباب السعادتين"، ط2، دار الطباعة المحمدية، القاهرة: 1399-1979.

[40] ابن قيم الجوزية: الروح، تحقيق: بسام علي العموش، جزء 2، ط2، دار ابن تيمية، الرياض: 1992، ص.502

[41] المرجع السابق، ص.504

[42] المرجع السابق، ص.511

[43] المقصود به أبو هذيل العلاف

[44] المرجع السابق، ص175-.178

[45] المرجع السابق: ص.579

[46] المرجع السابق: ص579

[47] المرجع السابق، ص.732

[48] المرجع السابق: ص.599

[49] المرجع السابق: س.599

[50] المرجع السابق، ص.518

[51] المرجع السابق، ص.518

[52] المرجع السابق، ص.524

[53] المرجع السابق: ص.665

[54] انظر مثلا كتاب: عثمان نجاتي: القرآن وعلم النفس، ط4، دار الشروق، القاهرة: 1409هج-1989م، ص:216.

[55] ابن القيم: إغاثة اللهفان، ص.76

[56] ابن القيم: إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان، تحقيق: محمد عفيفي، جزء1، ط2، المكتب الإسلامي: بيروت، مكتبة الخاني: الرياض، 1409هج، 1989. ص.11

[57] نفس المرجع، ص.17

[58] ابن قيم الجوزية: طريق الهجرتين وباب السعادتين، مرجع سابق، ص.20

[59] المقصود: متجرد لحب الله.

[60] المرجع السابق، ص.17

[61] المرجع السابق، ص.27

[62] المرجع السابق، ص.27

[63] ابن القيم: الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ص4.

[64] المرجع السابق، ص.121

[65] المرجع السابق، ص120-.221

[66] حديث متفق عليه، أخرجه البخاري في باب العين حق تحت رقم: 5408، وأخرجه مسلم في باب ماجاء في الاتقاء من العي تحت رقم:3879.

[67] ابن القيم: زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق: شعيب الرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، ط27، مؤسسة الرسالة ومكتبة المنار الإسلامية، الكويت: 1414هج-1994. ص .166.

[68] المرجع السابق، ص.166

[69] ابن القيم: المرجع السابق، ص.167

[70] ونص الحديث كما جاء في سنن الترمذي "أن رجلين قدما في زمن رسول الله (ص) فخطبا فعجبا الناس من كلامهما، فالتفت إلينا رسول (ص) فقال: إن من البيان سحرا أو إن بعض البيان سحر". وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. رواه الرتمذي في سننه. رقم الحديث 2028، جزء4، كتاب البر والصلة عن رسول الله (ص).

[71] روى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد "أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يامحمد ! اشتكيت؟ فقال: نعم. قال:باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس، أو عين حاسد الله يشفيك، باسم الله أرقيك". رقم الحديث: 5664، باب الطب والمرض.

[72] رواه الترمذي في باب كيف الرقى، رقم الحديث: 3892.

[73] ورد الاستغسال في حديث رواه مسلم في صحيحه عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم: "العين حق، ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا". رقم الحديث: 5666.

[74] المرجع السابق، ص.171

[75] المرجع السابق، ص.180

[76] ابن القيم: زاد المعاد، ج4، ص.66

[77] المرجع السابق، ص.70

[78] ابن قيم الجوزية: الداء والدواء تحقيق: علي بن حسن الحلبي الأثرين ط3، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، الدمام، المملكة العربية السعودية:1419-1999، ص.25

[79] ابن القيم: الروح، ص.40

[80] المرجه نفسه، ص.40

[81] المرجع نفسه، ص40.

* يقصد النفس المطمئنة التي وردت في القرآن الكريم (سورة الفجر).

[82] ابن قيم الجوزية: إغاثة اللهفان، مرجع سابق، جزء2، ص671.

[83] ابن القيم: مدارج السالكين، ج1، ص6.
[84] المرجع السابق، ج3، ص.265
[85] ابن قيم الجوزية: : مفتاح دار السعادة ومنشور ألوية العلم والإرادة، ط3، مكتبة حميدو، الإسكندرية: 1979، ص119-120.
[86] المرجع السابق، ص.120
[87] المرجع السابق ص.34
[88] المرجع السابق، ص35.
[89] ابن القيم: إغاثة اللهفان، ج2، ص.123
[90] رواه ابن ماجة في سننه، رقم الحديث: .4251
[91] ابن القيم: مفتاح دار السعادة ومنشور ألوية العلم والإرادة،مرجع سابق، ص.319
[92] ابن القيم: زاد المعاد في هدي خير العباد، ج2، ص.463
[93] ابن القيم: الروح، ص.251
[94] ابن القيم: الفوائد، ص.26
[95] ابن القيم: زاد المعاد في هدي خير العباد، ج1، ص.184
[96] المرجع السابق، ج1، ص.184
[97] رواه مسلم في صحيحه، رقم الحديث: .2123
[98] رواه مسلم في صحيحه، رقم الحديث: .7061
[99] حديث متفق عليه. رواه البخاري في باب الدعاء عند الكرب، رقم الحديث: 5986. ورواه مسلم في باب دعاء الكرب، رقم الحديث: .6858
[100] ابن القيم: زاد المعاد، ج2ن ص.361
[101] انظر "مختصر زاد المعاد": الإمام محمد بن عبد الوهاب، المكتب الإسلامي، ط3، بيروت:1981.
[102] إشارة واضحة إلى وجود سبع أرضين؛ وفي القرآن إشارة لذلك في سورة الطلاق آية 13 مما يستدعي التأمل والبحث في الموضوع من طرف المتخصصين في هذا المجال.
[103] رواه الترمذي في كتاب الدعوات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، حديث رقم: .3523
[104] رواه الترمذي في كتاب الدعوات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم الحديث: 3528. قال أبو عيسى: حديث حسن غريب.
[105] ابن القيم: زاد المعاد في هدي خير العباد، ج2، ص458.

[106] ابن قيم الجوزية: الداء والدواء، تحقيق: علي بن حسن الحلبي الأثري، ط3، دار ابن الجوزي، الدمام: 1999، ص280-281.

[107] ابن القيم: الفوائد، ص.58

[108] المرجع السابق نفسه: ص.289

[109] نفس المرجع، ص.363

[110] ابن القيم: إغاثة اللهفان، ج2، ص.136

[111] ابن قيم الجوزية: الداء والدواء، مرجع سابق، ص.295

[112] المرجع السابق نفسه، ص.296

[113] المرجع السابق، ص.296

[114] ابن قيم الجوزية: إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان، مرجع سابق، ص165.

[115] المرجع السابق، ص.298

[116] نفس المرجع، ص.299

[117] نفس المرجع، ص.319

[118] المرجع السابق، ص.338

[119] المرجع السابق، ص.371

[120] ابن قيم الجوزية: الداء والدواء، مرجع سابق، ص324-325.

[121] المرجع السابق، ص.356

[122] أخرجه الإمام أحمد في مسنده. رقم الحديث: 16849.

[123] ابن قيم: مدارج السلكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، جزء3، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيؤوت:بدون تاريخ. ص.43

[124] ابن قيم: الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ص43-44.

[125] المرجع السابق، ص.44

[126] المرجع السابق، ص.45

[127] ابن القيم: الفوائد، ص.141

[128] ابن القيم: الروح، مرجع سابق، ص.525

[129] المرجع السابق، ص.342

[130] ابن القيم: كتاب الفوائد، ص.157

[139] المرجع السابق نفسه، ص.158

[140] المرجع السابق، ص157.

[141] المرجع السابق، ص158-159.
[142] ابن القيم: مدارج السالكين، ج3، ص314.
[143] ابن قيم: مفتاح دار السعادة ومنشور ألوية العلم والإرادة، ص277-278.
[144] المرجع السابق، ص127-128.
[145] المرجع السابق، ص50.
[146] المرجع السابق، ص50.
** المقصود به قوله تعالى: "خلق الإنسان من علق" (العلق:2).
[147] المرجع السابق، ص63.
[148] المرجع السابق، ص301.
[149] المرجع السابق، ص87.
[150] ابن القيم: مفتاح دار السعادة ومنشور ألوية العلم والإرادة، مرجع سابق، ص114.
[151] المرجع السابق، ص63.
[152] المرجع السابق، ص113.
[153] المرجع السابق، ص298-299.
[154] ابن القيم: الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، مرجع سابق، ص34.
[155] المرجع السابق، ص54.
[156] ابن قيم الجوزية: الداء والدواء، مرجع سابق، ص314.
[157] ابن القيم: كدارج السالكين، مرجع سابق، ص99.
[158] المرجع السابق، ص99.
[159] ابن القيم: الوابل الصيب، ص48.
[160] ابن القيم: مدارج السالكين، ج3، ص445.
[161] ابن القيم: بدائع الفوائد، ج3، ص706.
[162] ابن القيم: المرجع السابق، ص707.
[163] المرجع السابق، ص320.
[164] المرجع السابق، ص314.
[165] المرجع السابق، ص319.
[166] المرجع السابق، ص320.
[167] ابن القيم: زاد المهاجر إلى ربه، ص14.
[168] ابن القيم: مدارج السالكين، ج1، ص368.
[169] المرجع نفسه، ص401.

[170] المرجع السابق، ص458-459.
[171] ابن القيم: الروح، ص213.
[172] ابن القيم: مدارج السالكين...، ج3، ص495.
[173] ابن القيم: تحفة المولود ، ص240.
[174] المرجع نفسه، ص321.
[175] المرجع نفسه، ص421.
[176] المرسج نفسه، ص244.
[177] المرجع السابق، ص126.
[178] ابن القيم: زاد المعاد، ج3، ص12.
[179] ابن القيم: مفتاح دار السعادة ومنشور ألوية العلم والإرادة، مرجع سابق، ص299.
[180] ابن القيم: التبيان في أقسام القرآن، ص135.
[181] ابن القيم: إعلام الموقعين، ج2، ص113.
[182] المرجع السابق نفسه، ص 113.
[183] ابن القيم: الفوائدن ج1، ص143.
[184] ابن القيم: إغاثة اللهفان، ج2، ص137.
[185] المرجع السابق نفسه، ص137.
[186] المرجع السابق نفسه، ص138.
[187] ابن القيم: مدارج السالكي، ج4، 311.
[188] ابن القيم: مدارج السالكين، ج3، ص488.
[189] ابن القيم: مفتاح السعادة، ج2، ص173.
[190] انظر: تهذيب مدارج السالكين: عبد المنعم صالح العلي العزي، مؤسسة الرسالة، مجلد1، ط6، بيروت:1420هج-2000، ص24.
[191] انظر: مصطفى عشوي: تكامل العلوم الاجتماعية والعلوم الشرعية، مجلة "التجديد"، مجلة فصلية محكمة تصدرها الجامعة الاسلامية العالمية بماليزيا، رقم2، ص :55-81 (1997).
[192] ابن القيم: الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، مرجع سابق، ص4.

الراسخون

12

2015

السيكولوجيا من منظور التراث النفسي الحديث

آخر إصدارات 2014